

L3

al-halgah 1

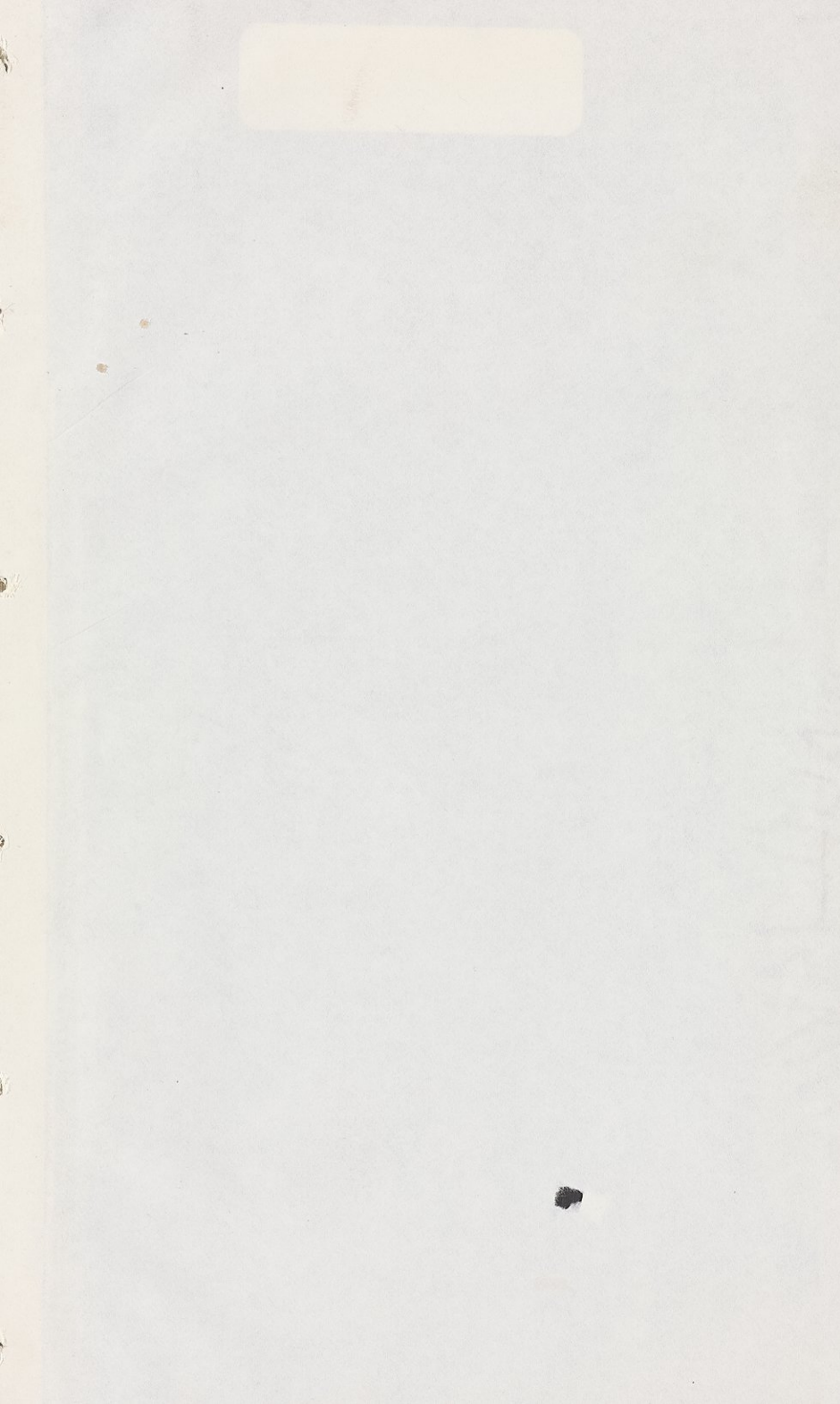
(Arab) B741.L3 al-halqah l
Lahbabi
(Mufakkirū al-Islām..

[illegible]

Princeton University Library



32101 074436286



مفكر و الاسلام

الحلقة الاولى

محمد الجبالي



الطبعة الاولى

١٣٦٤ هـ ١٩٤٥ م

مطبعة الامنية

شارع المأمونية بالرباط

الحكمة ضالمة المومن يلمة طها حيث وجدها
(حديث شريف)



محمد الحبابي

اقبت لا خديم لا لا خدام
السيد المسيح (صلعم)

Lahbabi, Mohamed Aziz.

مفكر و الاسلام

الحلقة الاولى



محمد الحبابي

الطبعة الاولى

١٣٦٤ هـ ١٩٤٥ م

مطبعة الامنية

شارع المأمونية بالرباط

(RECAP)

(Arab)

B741

L3

al-halqah 1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلی اللہ علی سیدنا محمد الرسول الحکیم

اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني
على الناس ، يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ،
إلى من تكلمنى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أو إلى عدو ملكته أمري .
إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هي أوسع لى
أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه
أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو أن تحل بى
سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك .

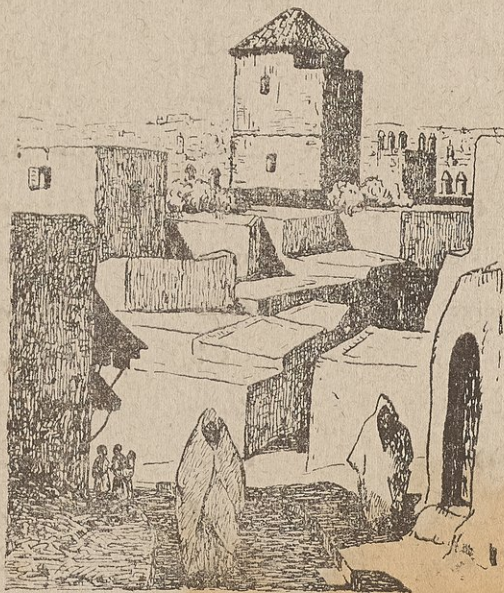


إصلاح خطأ

بما أنى بفاس والمطبعة بالرباط ، لم أجد لربط الوصل بيننا
للتصحيح اللازم من مسيل ، ولهذا وقعت أغلاط مطبعية لا تفوت
القاري ، ها أنا أثبت بعضها فى الجدول الآتى :

خطأ	إصلاح		
ص ٩	س ٢١	ذى بدأ	ذى بدء
ص ٢٠	س ٥	مبادي	مبادي
ص ٢١	س ١٦	الدساسين	الحساسية
ص ٢٦	س ١٣	الاسلامه	الاسلامية
ص ٤٠	س ٥	خوفا	خوف
ص ٤٢	(فى العنوان)	مذاهب	مدارس
ص ٤٧	س ٥	بعضها فى تقدم بعض	بعضها فى بعض
ص ٤٧	س ١٢	Cuvilier	Cuvillier
ص ٥٣	س ١٤	Géorgs	Géorge
ص ٥٩	س ٧	رؤية	رؤيا
ص ٧٣	س ١٠	حريك	تحريك
ص ٩٨	س ١٠	زملأوه	زملاءه
ص ١٠٦	س ١٣	كف	كفر
ص ١٠٩	س ١٠	لكنها لا تحتوى	لكنه لا يحتوى

اصلاح	خطاً		
لا تعرف	لا تعرفه	ص ١٢٠	س ٣
وقد وصلت		ص ١٢٥	س ٢
مطر د	مطر ود	ص ١٤٠	(في التعليق)
ماهي	ما هو	ص ١٦٢	س ١٢
بحسب	يحسب	ص ١٨٦	س ١٣
للوبال	للوبل	ص ١٩٣	س ٤
عشرة	عشر	ص ١٩٣	س ١١ و ٨
الصفير (وقد تكرر هذا الخطأ)	السفر	ص ٢٠٠	س ١١
قانونا	قانون	ص ٢١٦	س ١٦
ارتباب	ارتبات	ص ٢١٨	س ١١
نميز	نمير	ص ٢٢٢	س ٢
يفاجئنا	يفاجؤنا	ص ٢٣١	س ٨



مفكر
الاسلام

الحلقة
الاولى

تمهيد

لا يمكن لعصر من العصور أن يخلو من عباقرة يطلعون مع الشمس من مطلع الشمس ، وما كان ليخمد صوت هذا الشرق ، تلك المواطن التي انبثقت منها حكمة بوذا ، ورفع فيها موسى راية الدعاية ضد الرق والظلم ، وكسر فيها شوكة السحرة ، وسطعت منها مبادئ الرحمة والدعوة للتآخي الانساني التي ارسل بها عيسى ، وتألفت منها أنوار الهداية الاسلامية التي جعلت الغرب يستقبل الشرق في انبعاثاته ، وجعلت الشرق يستقبل الجزيرة العربية في اتجاهه ، فما اسمى ما جاء به العرب ، وما أعرب ما سموا به . دين الهداية والمدنية ، وإسلام السلم والمساواة .
حقا لقد خفت صوت الشرق وضعفت رناته عند ما انكمش على المادة المجردة واتخذها معبودا أو نسي ما وراء المادة من معنويات ، ولما انكب على قشور المعنويات والزهد في ماديات غافلا عن ان الروح لا تقوم بلامادة ، كما أن المادة تصبح أداة

تخريب إذا لم يكن في صلبها عناصر معنوية ، فالمعنويات والماديات هي مقومات الحياة الأولى ، كما تشهد بذلك التجارب اليومية والظواهر الكونية المسلمة ، ففي انفصالهما افراط وتفريط .

ومنذ عصور ونحن أبناء هذا المغرب من هذا المشرق في تدهور ، بيد أننا بدأنا نحس بالمرض بل بالخطر ونعمل على العلاج ، ولا يصلح الخلف إلا بما يصلح به السلف ، لكن ، من منا يعرف السلف ؟ إن بعض الكتب هي وحدها التي تعرف عن سلفنا أشياء وأشياء ، لكن هذه المصنفات مبشرة مغبرة ، ترهقها قترلة ، تشتت ذخائرنا هنا وهناك وابتلعت الظروف الكثير منها ، وأكلت الجرذان حقها وتركت للأرضة نصيبا .

ومهما عظم الضياع فإن الكتب التي احتفظ بها الزمن كثيرة بيد أن من عندنا سفر مفقود يضمن به ويريد أن يتبرك به وحده لا شريك له لأنه يرى أن من حسن حفظه ومن إداة صيته أن يستبد بمخطوط هو إرث الأمة بل إرث الإنسانية جمعاء .

وقد كان البارئ يؤيد من حين لحين بعض المشجعين على نشر الثقافة ويدفع اصحاب الغيرة الدينية او القومية الى طبع بعض الكتب على نفقاتهم او على نفقات حكومة المغرب ، غير

أن الفقر ما يزال ناشرا ظلّه على (مرافيع) خزائنا الخاصة والعامة
بالنسبة لآثار الأجداد الكثيرة.

واقْد أخذ يدب فينا بصيص الأمل حين تأسست بالرباط
جمعية التأليف والترجمة والنشر، لكن يحمل بنا ألا نخفي أسفنا
على إقبال هذه الهيئة التي ماتت قبل عقيقتها، راجين من الغيورين
أن يلدوا أخرى، فإذا خلقت فإنها سوف لا تعدم خطابا من
مختلف الملل والنحل.



لقد اعتنى كثير من المستشرقين بدراسة آثارنا
والبحت عن مكنونات خزائنا وعما تحت غبار الأيام من تبر
خالص، فالشرق كان مهذا للوحى وكانت وستبقى تتمخض
فيه الإلهامات والمدنيات.

أخذ إلهام الشرق باب أحد هؤلاء المستشرقين وهو
البحاث (البارون كارادفو) الفرنسى Baron Carra de Vaux،
فصنف كتباً مختلفة في مختلف نواحي الثقافة العربية الخالدة،
فألف كتاباً عن الغزالي وآخر عن ابن سينا كما قام بدور هام
بدائرة المعارف الإسلامية.

ويمتاز هذا العالم بالانصاف في بحوثه والاتساع في الاطلاع.
وله كتاب Les Penseurs de l'Islame «مفكر الاسلام»
في خمسة اجزاء في كل جزء منها ٤٠٠ صفحة، وهو مجموعة آراء
وتحليلات لأكبر الشخصيات الإسلامية التي أصبحت عالمية،
وللنضوج الفكري الإسلامي أيام ازدهارنا.

اطلعت على الكتاب فأعجبت به ورأيت من واجبي ان
أشارك في الاستفادة منها مواطني الذين لا يمكن أكثرهم أن
يقرأوا بالفرنسية، فترجمت لهم هذا القسم وأضفت الى فصولها
فصولا أخرى تكميلية، وأصحبته بالتعليق التي ارتأيت فيها تمة
للفائدة والتراجم المهمة والتواريخ الهجرية، او الميلادية، حين
يعطى المؤلف نوعا واحدا، كما اني قسمت الفصول الى أبواب
وقدمت وأخرت تسهيلا على القارئ.

وقد أثرت نقل هذا (١) القسم لتبيان كيف يتفهم الغربيون

(١) وهو الفصل الثاني من ج ٤ .

وعناوين الفصول الاخرى بهذا الجزء هي :

(أ) فلسفة المدرسة التقليدية الجدلانية

(ج) المصوفية

(د) الموسيقى .

عقائدنا، وما أجدرنى هنا بأن أشير الى ان حاكي الكفر ليس
بكافر، وان الناقل ليس بمقرر.

فسي ان اكون موقفا في هذه الخطوة الأولى حتى تكون
خير مشجع لي على إتمام السلسلة

☆☆☆

وإلى الحلقةين المقبلتين ان شاء الله حيث سننغمز مع الصوفيين
في خمرتهم ومع الرياضيين في أرقامهم وتجاربهم.

فاس فاتح محرم عام ١٣٦٢

محمد بن عبد العزيز الحبابي



مقدمة

أترجم بتصرف مقدمة الجزء الأول من كتاب مفكرى الإسلام لتيان البواعث التى دفعت بالمسيو (برون كارادوفو) إلى تأليف هذا الكتاب ولعمرة ما تشتمل عليه مختلف الاجزاء، قال: «إن اهتمام الجمهور بالغرب قد أخذ يتجه نحو الشرق أكثر من ذى قبل، فالروابط التى تصل دول أوروبا بالشعوب الإسلامية قد ازدادت وثوقاً فى ساحة الوغى أيام الحرب العظمى. وفرنسا اليوم اتصال متين بكثير من الدول الإسلامية، فيجب عليها أن تعرف معرفة كبيرة هاتى الدول وأن تدرس روحها وماضيها ومعتقداتها وغرائزها ومجدها الغابر.



وصل المستشرقون بفضل خدماتهم إلى تعريف الأوربيين بأداب شامعة الأطراف غنية رقيقة ومتنوعة مفصلة مائة بالاعمال والأفكار.

وقد طبع الشرقيون أنفسهم كثيرا من منتوجات أسلافهم ،
فالمواد المنشورة اليوم باللغات الثلاثة العظيمة : العربية والتركية
والفارسية ضخمة جدا ، وانه ليزداد صعوبة الاتجاه في مثل هذه
البحور - كما يقول العرب - لمن ليست له تجربة كبيرة ، ولهذا
كان لازما وجود مؤلفات عامة في هذه الموضوعات ، فنحن
لاناتي في كتابنا (مفكر و الاسلام) بفهرس المكتب ولائحة
الأعلام ، بل نقدم زبدة الاختيار ، إذ غايتنا ليست في التكلم عن
كل شيء ، ولكنها في إظهار الشخصيات البارزة والتعريف بأهمات
الكتب وبعض الأفكار الأساسية وانظريات المهمة ، فنحن
لأنجعل بين يدي القارئ لائحة أسماء وعناوين المصنفات ، بل
إننا نقدم له أشياء حيية : أشخاصا وآراء وطبائع .



إن كل هذه الآداب تنبض أفكارا وحيوية ، وتتجلى فيها
(طبيعية) عاطفة حب الحق مع الميل إلى الأخلاق والزهد ، وإن
حياة الفاتحين (ولو حياة أظعمهم) خاضعة لذوق فني وأدبي
مفعم إخلاصا ، ومتأثرة بنوع من الغريزة السامية في حب
النظام ، وبالرزانة والحكمة .

وكتابنا هذا يحتوي على خمسة أجزاء :

فالأول : خاص بالأمراء والمؤرخين وبالفلسفة السياسية.

والثاني : بالجغرافية والطبيعات، فمنذ القديم والجغرافيون

العرب معروفون بأوروبا، وأما مثقفوا هذه الأمة من أطباء

ومنجمين وعلماء الجبر والكيمياء فمشهورون منذ القرون الوسطى،

ولهذا نلخص في هذا الجزء الخدمات التي قدموا للعلم.

وفي الثالث : نتعرض للتفسير والفقه.

وفي الرابع : إلى الفلسفة السكولاستيكية (١) والكلام والتصوف

وبالخامس : نلقى نظرة على الطوائف والمذهب

الإباحي الحالي (٢) .

(١) كثيرا ما استرد هذه اللفظة في هذا الكتاب ، ولهذا نلقى عليها

نظرة بادية ذي بدأ في الصفحة التي تلي .

(٢) يتكلم في هذا الجزء عن مذهب الشيعة وما تفرع عنه (الاسماعليون

والدروز والبابيون) وعن النهضة الجديدة بالعالم الاسلامي (الوهابيون

ومدرسة محمد عبده وغير ذلك .)

الفلسفة السكولاستيكية

Philosophie Scolastique

اخترت لترجمتها : الفلسفة التقليدية المدرسية ، او الفلسفة التقليدية الجدلية .

والفلسفة (السكولاستيكية) هي فلسفة القرون الوسطى ، وتنشأ ظلها من القرن الثامن الميلاد (حيث أسس شارلمان Charlemagne إمبراطور فرنسا إذ ذاك ، وهو معاصر هارون الرشيد ، مدارس في إمبراطوريتهم كانت تدرس فيها المذاهب الفلسفية التي كان مقرها بينزنتية وبغداد وقرطبة) الى القرن السادس عشر أي الى عصر الانبعاث الايطالي .

ولفظ (سكولاستيك) مشتق من لفظة لاتينية كانت تطلق على المدارس في القرون الوسطى (scolasticus) .

ومميزات هذه المدارس الفلسفية هي :

أ) النظام في الأسئلة والأجوبة مع حرية في النقد .

(ب) كانت ذات صبغة دينية بمعنى أنها كانت تستعين بالعقل والدين لتثبت أن الإيمان يتفق والبداهة العقلية.

(ج) عدم الخوض في البحوث العلمية التي من شأنها أن تصل بصاحبها إلى نتيجة معاكسة لما تقرر الكنيسة.

(د) ألا تحصر مناقشاتنا في الدين بل ان توسع أفقها (مع الخضوع للدين في الكليات والجزئيات).

(هـ) عدم الجدال في المسائل الدينية وإنما التصديق بها لأن العقل لا يمكن أن يفهمها إلا بوحى إلهي.



وهذا القسم الأخير - كما يظهر لى - من أثر اليهود حيث إن الحكماء الإسرائيليين كانوا يقولون بعجز العقل البشرى عن إدراك المسائل التي تصطبغ بطابع الفلسفة المحضة والحكم عليها، فعوضا عن أن يكلفوا عقولهم مشقة النظر والتحليل يستندون الى الكتاب المقدس الذي يحضهم على نبذ الجدال المنطقي:

«أما الحكماء، فمن أين توجد، وأين هو مكان الفهم؟ لا يعرف الانسان قيمتها ولا توجد في أرض الاحياء.....
الله يفهم طريقها وهو عالم بمكانها..... وقال للانسان:

هو ذا مخافة الرب هي الحكمة ، والجيدان عن الشر هو الفهم «

(التوراة ، سفر أيوب ، الاصحاح الثامن والعشرون)

انظر كذلك في نفس السفر الاصحاحات ٣٨ و ٣٩ و ٤٠ و ٤١ و ٤٢



القسم

الاول

علم الكلام

علم الكلام

« منذ نشأة الإسلام أضحي فيه البحث الفلسفي ذا صلة مباشرة باللاهوت المسمى بالكلام

دخل علم الكلام في الإسلام عن طريق النقل والرواية، وهو متقدم على ترجمته كتب قدماء اليونان التي بعثت فيه روحاً جديدة، والحقيقة أنها لم يتبع فلسفة المدرسة التقليدية، وإنما له شبه بالتدقيقات الجدلية في البحوث اللاهوتية التي كانت مسيطرة على البزنطيين، ويجب على من أراد أن يقف على أصل هذا العلم أن يبحث في الثقافة المسيحية.



اعتنى في الإسلام بالكلام اعتناء كله قوة وحيوية، فاشتغل به علماء كثيرون جداً منذ أوائل القرن الثاني للهجرة: وكانوا يناضلون بصلافة شديدة عن آرائهم المتناقضة تناقضاً كبيراً، فيقدر ماقويت وسهلت الآيات القرآنية التي تتعاقب بالله وبصفاته

بقدر ما بعد الاختلاف بينها وبين هاتئ التدقيقات في البحث
والجدال ، ومثل ذلك ما حصل من بون شاسع بين الحقوق التي
في القرآن وبين فقه الأئمة المفصل المتشعب (١) »



(١) إن هذه الفكرة لتزيدني إعجابا باطلاع المسيو كارا ، فهي بحق
فكرة خبير بأصول الاسلام وبروعه ، وكانى بها صادرة عن مصاح
مسلم كئير من زعماء الحركة السلفية .
حبذا لو تفطن إليها المسلمون ، فمن دواعى الاسف أن يشعر
الاوروبيون بهذه الحقيقة وجمهور الامة الاسلامية عنها غافلون .

ماهو اصل علم الكلام؟

قدم المسيو كارا أن أصل علم الكلام من الثقافة المسيحية .
حقا قد تأثر علم الكلام بالثقافة المسيحية من جملة ما تأثرت به
المدنية الإسلامية من ثقافات ومدنيات ، لكن التأثير غير الاصل .
إن علم الكلام علم إسلامي محض أوجدته عوامل دينية
قاهرة ، ومن الطبيعي أن يكون إسلاميا ، لان الضرورة أم الاختراع :
أتى الإسلام فصادم مناقضين كثيرا ومحاجين عنيدين ، فلم
يربدا من مناقشتهم واقناعهم بالبرهان العقلي والدليل القوي ، وكان
في هذا العراك العنيف قبل أن يتصل بالثقافات الاجنبية ، فقاوم
المشركين من العرب عباد : « الالات وللعزى ومناة الثالثة
ال اخرى » ، والذين ألوهوا الكواكب فسخر منهم في حكاية
إبراهيم : « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال : هذا ربي ، فلما
أفل ، قال : لا أحب الآفلين . » ، ورد على الدهريين الذين قالوا :
« ما يهلكنا الا الدهر . » ، وعلى من أنكر البعث : « من يحيى

العظام وهى رميم؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة! «
والاسلام نفسه يحض على البحث والنظر: « أولم ينظروا
فى ملكوت السماوات والارض » «إن فى خلق السماوات والارض
واختلاف الليل والنهار آيات لآولى الالباب الذين يذكرون
الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات
والارض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانهك » .

كما يحض على المجادلة لانه دين العقل والايمان عن طريق
الاقتناع بالدليل ، بل يوبخ المقلدين الذين يقولون : « إنا وجدنا
آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » .

إنه يامر بالمجادلة لكنه يحدد لها آدابا : « ادع الى سبيل
ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن . »
والتاريخ يحتفظ لنا بكثير من محاجات الرسول (صلعم)
لغير المسلمين .

☆☆☆

هذا أهم أسس علم الكلام ، وهى إسلامية قرآنية . نعم
مستنظم هذا الامس ومستحلى بالصبغة الفلسفية متأثرة بالثقافات
الفارسية والمسيحية واليهودية

إن الدين الإسلامي لا يعمل بالظن : « إن الظن لا يغني
من الحق شيئاً » ، بل يرغب في الانتباه ودراسة المحسوسات :
« والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها ... » ، « والتين والزيتون
وطور سينين وهذا البلد الامين .. » ، « والضحى والليل إذا
مدجى .. » ، « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء
كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف
سطحت .. » ، « أولم ينظروا فى ملكوت السماوات والارض ... »
نعم إن من أسامه الدعوة إلى التجربة العلمية وإلى العلوم الوضعية ،
أما اليونان فلم يجعلوا أساس بحوثهم التجريبية ، فبقيت معارفهم
فلسفة نظريات :

« لم يهتمد اليونان مدّة اشتغالهم بالبحوث الفلسفية الى
جعل التجربة قاعدة البحث وأساس التنقيب » (هذا ما يعترف
به المستر ه . ج ولز الانجليزي في كتابه خلاصة التاريخ العام
المؤرخ فى أواخر الحرب العظمى) H. G. WELLS

استعان المسايون بفلسفة المتقدمين على إبراز علم الكلام
فى حالته الجدلية المنطقية ، على أنهم انتقدوها وتركوا الزبد
ينذهب جفاء ، يقول ابن رشد :

« إن المتقدمين حينما حاكمنا كلامهم الى المنطق وجدناهم لم يوفوا بما اشترطوا هناك »

كان العرب وثنيين وكانوا في جوار البنظنيين ورثة الفلسفة اليونانية الوثنية ، وكانت اذ ذاك اتصالات تجارية بين البلدين ، فلم لم يأخذ العرب عنهم مبادئ هاتم الفلسفة وبقوا في معزل عن البحوث الجدلية الى انبثاق فجر الإسلام ؟

ان طبيعة الجزيرة العربية وطبيعتها اثنائها ليست فيهما قابلية للفلسفة في حين ان الإسلام جاء وفي صلبه الخوض على البحث ، فأخذ العرب - مدفوعين بدافع الدين - في غيرهم من المسلمين يبحثون ويجادلون وينخاون كل ما يرد عليهم من الأفكار والامتنعاجات الدينية والاستنباطات العلمية .

فلولا الإسلام لم يكن العرب ليصبحوا امت تفتخر بالكندی وابن خلدون وامثالهما

كما ان لولا الإسلام لم تصل الفلسفة اليونانية الى الغرب منقحة منتقاة من بين كثير من الأوهام ومركزة على الملاحظة والتجربة ، مطبقة على قواعد المنطق (لأن الفلسفة اليونانية نشأت قبل ارسطو واضع علم المنطق) .

أشرت هنا إلى اليونانيين لأن المسلمين ترجموا كتبهم ،
فأردت هنا ان اثبت كذلك ان الترجمة غير الاصل .

☆☆☆

كان بالإسلام مشاكل ميامية كالخلافة والإمامة اصطفت
بالصبغة الدينية واصبحت الاحزاب الميامية تبني دعاياتها
على المبادئ الدينية .

واعتنق الإسلام احبار ورهبان وعلماء في المانوية
وفي الزرادشتية فأخذوا يشيرون مسائل من دينهم الاول
ويصبغونها بصبغة الاسلام - الكثير منهم عن غير قصد -
فيتحمس لها البعض ويعمل على دحضها آخرون

كما اظهر الإسلام بعضهم ليدخلوا في هذا الدين الجديد
ماليس منه (كالإسرائيليات) ، وزعماء هذه الطائفتا كثيرون
اشهرهم كعب الاحبار الذي قال عنه المصالح الكبير رشيد
رضا : « إنه غش المسلمين بالاسلام ، والذي مايزال الى اليوم
(وبالألمف) خطبائونا يروون عنه فوق منابر الجمعة ، وكما
ذكروا اسمه قالوا : ... مبدنا كعب الاحبار رضى الله عنه ... »
(راجع مقال الدسامين بالجزء التاسع من تفسير المنار وكذلك

قصة مقتل عمر في كتاب عمر ابى النصر ، المسمى - عمر بن الخطاب -
تزدد تبصر ا في دس كعب (١) الاسلام) ، ويقول عنه الاستاذ
فؤاد اqram البستاني في الروائع ١٣ (ابن خلدون ، مقدمة
المقدمة) ، التعليق ٥ ص ١٣ :

« . . يروى عنه المؤرخين والمفسرون كثير من الاحاديث
والغرائب المتعلقة بقدمااء العرب وغيرهم من الشعوب ، ولكن
اكثر هذه الاساطير لاصحة لها . » ، فهذا قول صريح في كون
كعب وضاعاً ، ويلقبنا الاستاذ رشيد رضا في تفسير المنار ، عند
شرح قوله تعالى « يسألونك عن الساعة » ب (بطل
الخرافات الاسرائيلية) .

والى جانب هؤلاء جماعة من المغفلين تأثروا باليهودية فنقلوا
منها الى الاسلام اشياء مشوهة وجدت في سداجة العرب مرعى
خصبها فترعرعت ، وعلى راس هذه الطائفة اخص بالذكر
السدى ووهب بن منبه .

ولابن خلدون (بالمقدمة) نظرية في تفسير كيف ذاعت الاسرائليات

(١) وانظر محاضرات الحضارى عند الكلام عن عمر رضى
الله عنه . وإعجاز القرآن - لرافعى -

بين الاوساط الإسلامية .

في هذا الوسط الغنى بالأفكار والنظريات ، وفي هذا العراق العنيف بين المخلصين والمنافقين دعت ضرورة تنازع البقاء بين التقليد والتجديد وبين الجمود والتفكير الى مناقشات في القبول والرد ، ذا سنة ، وذاك زبغ وبدعة

» . . وإنما مقصودنا (أي علم الكلام) حفظ عقائد أهل السنة على أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة ، فقد ألقى الله سبحانه الى عبادنا على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عقيدة هي الحق على ما فيها صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار .

ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفت للسنة فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة أهل الحق على أهلها فأنشأ الله سبحانه طائفة المتكلمين وحرك دواعيهم لنصرة السنة الماثورة بكلام مرتب يكشف عن تلبسات أهل البدع المحدثات على خلاف السنة الماثورة ، فمنهم نشأ علم الكلام وأهله ، ولقد قام طائفة منهم بما أيدهم الله تعالى فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة الملتصقة بالقبول من النبوة والتغير في وجه

ما أحدث من البدعة ... » (من فصل : القول في بيان مقصود علم الكلام وحاصله - كتاب المنقذ من الضلال لحجة الإسلام محمد الغزالي) .

ومن العوامل أيضا على إيجاد وتشجيع المبادلات احتكاك المسلمين بعد الفتح بالثقافات الأجنبية ، فكان حب الاستطلاع يدفع المسلمين الى دراسة مبادئ ديانات الأمم المجاورة ليتسنى لهم مناقشاتهم فيها ، والحاجة تتطلب طبعا معرفة حجاج الخصم وأقوال الفرق ، وهذه المعرفة لا تكفي وحدها ، بل المناقشات تلازم بالنظر والتأمل فاضطر المسلمون إذن إلى التسامح بالفلسفة لمباحات المسيحيين وغير المسيحيين ، وفلسفة ذلك العصر لم تكن مسيحية !

لا أدري كيف أفند القول بأن أصل علم الكلام من المسيحية ، والتاريخ (الشاهد العدل) يقرر بأن المسيحية والفلسفة عدوان لدودان ؟

يقول التاريخ :

حجتي أن الخصام العنيف ، بل الحرب الشعواء التي قامت في القرن السادس عشر بين الكنيسة وبين المفكرين والمجتهدين من أتباع (ليطير Luther و كالفان Calvin) قد جعلت من

المسيحية دينين لا مذهبيين ، وإنما لم يظهر في تاريخ أوروبا
المسيحية فيلسوف كبير من صف (شبههور وسبنوزي وبركسن)
إلا بعد أن خلا للفلسفة الجو من السيطرة المسيحية ، أي بعد
انتشار الإلحاد في الربوع الغربية وبعد أن انكسرت شوكة
(الفاتيكان) وخفت مراقبته على التفكير ومحاربتة لحرية الرأي
(في المعتقدات وحتى في الميدان العلمي المحض)

ثم يزيد التاريخ :

أما الإسلام فقد ازدهرت الفلسفة بازدهارها ، ومنذ بدأ نجم
المسلمين يافل أخذت فلسفتهم تأفل حتى اننى لا أعرف لهم بعد
ابن باجة والحامى والكندى من فيلسوف كبير

*

* *

جاء في الجزء الأول من الملل :

« طالع شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين فسرت
أيام المامون فخلطت مناهجها بمناهج الكلام ، وأفردتها فناً من
فنون العلم ، وسمتها باسم علم الكلام . »

فالاسم إذن أتى في العصر العباسي ، لكن المسمى كان قبل
ذلك لوجود دواعيه ، ودواعيه - كما رأينا - إسلامية .

إن النتيجة العامة التي نخرج بها من هذا كله هي أن الثقافة المسيحية (من بين ثقافات أجنبية أخرى) أثرت في علم الكلام ، وذلك أمر مسلم يقضى به قانون التفاعل ، وهو قانون يحصل دائماً بين كل جديد وقديم في جميع أطوار الانقلابات التي مرت بها الإنسانية (على أن التفاعل ليس هو الأصل).

ونضيف إلى هذه النتيجة العامة ، استنتاجاً آخر يظهر جلياً وهو أن الثقافة الإسلامية أثرت في المسيحية أكثر مما

أثرت هذه في الإسلام ، ويلبذ لي أن اختتم بفقرات تزيد تأييداً

لما قلت من كتاب (خلاصة تاريخ العرب للمسيو سيديو الفرنسي)

الترجمة العربية التي اعتنى بها سعادة علي باشا مبارك (ص ٩) :

«.... وأما تاريخ الخلفاء الراشدين وكذا الأموية في دمشق

وقرطبة والعباسية ببغداد والفاطمية بمصر ووصف تزريق

الإسلامة المشرقية التي أغار عليها الأتراك ثم المغول فدونها

الأفرنج تدويناً حسناً وأضفنا إليها ما تركوا من أصولها وهو

وصف التمدن العربي الذي تمكنت أصوله في إفاق الدنيا القديمة

أقوى تمكن ، ولا نزال إلى الآن نرى آثاره حين نبحث عن مستمد

مباديء ما نحن عليه من المعلومات الأوروبية ، فإن العرب

في غايته القرن الثامن بعد الميلاد فقدوا الحمية الحربية وشغفوا
بحوز المعارف حتى أخذت عما قليل مدائن قرطبة وطليطلما
والقاهرة وفاس ومراكش وأصفهان وسمرقند تفاخر بغداد
في حيازة العلوم، والمعارف وقرى، ما ترجم الى العربية من كتب
اليونان في المدارس الإسلامية، وبذل العرب همتهم في الاستغلال
لجميع ما ابتكرته لا فهم البشرية من المعلومات والفنون وشهروا
في غالب البلاد خصوصا البلاد النصرانية من أوروبا ابتكارات
تدل على أنهم أئمتنا في المعارف، ولنا شاهد أصدق على علو شأنهم
الذي تجهلها الفرنج من أزمان مديدة .

الأول : ما أثر عنهم من توارىخ القرون المتوسطة وأخبار
الرحل والأسفار وقواميس ماشتهر من الأمكنة والرجال
والمجاميع الشاملة لكثير من الفنون الفاخرة .

والثاني : ما كان لديهم من الصناعات الفائقة والمباني الفاخرة
والاستكشافات المهمة في الفنون ، وما أوسعوا دائرتهم من علوم
الطب والتاريخ الطبيعي والكيمياء الصحيحة والفلاحة والعلوم
الصحيحة التي مارسوها بغاية النشاط من القرن التاسع الى القرن
الخامس عشر من الميلاد من سنة ٢٨٨ إلى سنة ٩٠٧ هجرية .

المتكلمون والمعتزلة

إن المذهب الأول للمتكلمين البحاثن هو مذهب المعتزلة

الذين يعدون خارجين من الدين .

أما مذهب أهل السنة فلم أوليات بالقرءان ، ولم يتم
استقراره الا بعد النزاع الطويل العنيف الذي خاضه أخيراً من

كفر المعتزلة .

واختص السنيون بلقب المتكلمين ، وكان قبل يطلق على
جميع الباحثين في التوحيد من سنيين وغيرهم .

*

* *

إننا لنأسف جداً لضياح كتب المعتزلة ، فلا نعرف عنهم الا
ما جاء في فقرتين مهمتين للشهرستاني والإيجي ، (١) وفي الفقرات
التي ينقلها المؤرخون والمتكلمون الذين أتوا بعدهم .

(١) هو عضد الدين الإيجي صاحب كتاب المواقف الشهير ؛ توفي

سنة ٧٥٦ .

لم يؤسس المعتزلة مدرسة واحدة متحدة بل كانوا مدارس
مشتى لأن كل فرد منهم يمتاز بآراء شخصية ، على أنهم متفقون
جميعاً في نقط أساسية .

والمسائل التي يحللونها تنقسم الى نوعين ، ماهو توحيد
محض كصفات الله وحرية العبد ، وماهو سياسى كالإمامة ، ونحن
لا نتكلم عن هذا القسم الأخير .

*

* *

ويصف المسعودى في كتابه مروج الذهب (ج ٧ ص ٢٣١
وما بعدها) مناظرات وقعت بين بعض علماء الكلام وفيهم أفراد
من المعتزلة ، خصوصاً أيام إمارة المتوكل في أوائل القرن الثالث ،
فيلاحظ أن المعتزلة آراء في مذهب الشيعة وفي الإمامة ،
ويصفهم بالغلاة (جماعة من الشيعة المتطرفين)

*

* *

تعليمقان :

(٢) يقول مكارا : إنما لانعرف عن المعتزلة الا ما جاء
في قهرتين للشهرستاني واللايجي .

حقاً ، قد قضى على كتب المعتزلة أعداؤهم ، لكننا نجد ،
 مهما يكن من شيء (كتاب الانتصار) ألفه الحياط للدفاع عنهم
 والرد على ابن الراوندى (مطبوع) ، ويشير ابن أبي حديد في شرح
 نهج البلاغة الى الاعتزال ويبسط بعض آرائهم ، (وهو مطبوع)
 ونجد الكلام عنهم ايضاً في كتاب الحيوان للجاحظ ، وفي العلم الشامخ
 (مطبوع كذلك) وفي الفرق بين الفرق للبغدادى (مطبوع)
 وفي مقالات الإسلاميين للأشعرى (مطبوع) وفي غير
 ذلك من الكتب

*

* *

(٣) المسعودي

هو أبو الحسن على المسعودي عاش في القرن العاشر الميلاد ،
 يرتقى نسبه الى الصحابي عبد الله بن مسعود ، ازداد ببغداد وتوفي
 بالقاهرة سنة ٣٤٦ هـ .

وهو من أشهر كتاب العرب وله الباع الطويل في التاريخ ،
 وتغلب على كتابته الدعاية ، وقد اكتسب من كثرة تجواله
 في العالم القديم تجارب ومعلومات قيمة ، طالع تاريخ اليونان
 والرومان وأتقن الفلسفة والأدب .

ألف في التاريخ والاجتماع والسياسة وأصول
الديانات والمذاهب .

ولكاتبه (مروج الذهب) شهرة كبيرة ، وقد طبع وترجم

الى الفرنسية بعناية م بافي دو كورتاي Pavet de Courteille

وم باربيسي دومينار Barbier de Meynard سنة ١٨٦٥ .



إيضاح حقيقة : قيمة المعتزلة

- على هامش الفصل المتقدم -

في نظر من يعد المعتزلة خارجين من الدين؟

« إن الاسلام لا يكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ! »

وقد قال الإمام مالك لمن سأله هل المعتزلة كفار :

(من الكفر فروا) .

وكيف يمكن الاسلام أن يرمى بالكفر جماعة تمتاز بالبحث

وبعد النظر ، ورائدها الوصول إلى معرفة الله ؟

وكيف يمكن الاسلام أن يرمى بالكفر جماعة قد اخذت

على عاتقها أن ترد على الملاحدة والدهريين وأن تدود عن

الدين الحنيف ؟

فإن شاءت المدارس الفاسفية أن تقباهى فللاسلام أن يباهى

بالمعتزلة ، فمذهبهم يرتكز على فلسفة متينة في اغلب مبادئها ،

ينصرونها نصراً مؤزراً ، فهل من الجائز أن يجعل المسامون

التكفير في محل الاعجاب ؟

إن الذين وصفوا المعتزلة بالكفر هم زمرة من المتزمتين كانوا - لبعدهم عن ميدان الفكر وجهلهم بالبحوث العقلية وقصور إدراكهم لها - يرون في الفلسفة خطراً على الدين ؛ مع أن للجدل الفلسفي أكبر الأيادي في رد شبهات وهجومات خصوم الإسلام الذين حاولوا تهديمه عن طريق هذا النوع من الجدل .

*

* *

هؤلاء الشيعة قد اندفعوا بدافع سياسي إلى تأييد علي كرم الله وجهه بكل الوسائل ، ولو أدى ذلك إلى تنفيذ الفكرة السياسية : [الغاية تبرر الوسيلة] فقالوا من أعراض كثير من الصحابة رضوان الله عليهم ، واثت بعض طوائفهم بآراء ياباها الدين . الشيء الذي أم يات به المعتزلة ، فلنقارن مثلاً بين الاسماعيليين والروافض وغيرهم من طوائف الشيعة وبين مذهب الاعتزال ، نجد أن المعتزلة كانوا أكثر تحفظاً من الآخرين وأكثر رزانة ؛ كانوا يحكمون العقل في المعتقدات والأشخاص ، صرحاء غير مباينين بتقديس الجهم - ور لهذا أو مخطئ على ذاك ، وإنما يضعون الفرد على بساط الفحص والتنقيب ثم يبدون رأيهم له

او عليه مؤيدا بحجج منطقية غير متأثرين بنزعة حزبية .
 فهل يمد اصحاب هذا الحصال الاسلامية غير مسلمين ؟
 ومن مواقفهم الصلبة الخالدة مهاجماتهم اصحاب السلطة
 نهيا للمنكر ، كحاربهم للولايد الخليفة الاموي حين تظاهر
 بالتهتك والخلاعة .

جاء في ج ٢ ص ٣٣٧ من (عيون الاخبار) لابن قتيبة ،
 حكاية تعطينا صورة حية عما قدمت عن صرامة مواقفهم في نصيح
 امراء الامية وحت رؤسائها على الحكم بالعدل واتباع
 الصراط السوي :

دخل عمرو بن عبيد على ابي جعفر المنصور ووعظه
 في لهجة من لا تأخذ في الله لومة لائم ولا يخاف الاسلطة
 الله ، في لهجة المخلص والمسلم التقى .
 فهل يكون امثال هؤلاء كفارا ؟

☆☆☆

فما اجدر اليوم شبابنا المعجبين بفكرى فرنسا في القرن
 الثامن عشر بدراسة مذهب المعتزلة ليتضح لهم ان افكار
 اولئك الغريبيين - (اعنى اصحاب دائرة المعارف كما يسميهم
 التاريخ) Les Encyclopédistes وهم فواظير ودالامبير

وديدرو ومونتيسكيو) ، تلك الافكار المبنية على
 (الراسيوناليسم Rationalisme) اي على مذهب البحث
 المنطقي والحكم العقلي المجرد - كلها افكار ليست بغريبة عن الاسلام .
 وما اجدد اولئك الشبان بدراسة المعتزلة ليروا كيف
 استطاع الدين الاسلامي الحنيف ان يروى غليل فكرة المعتزلة
 (الراسيوناليتا) وان يزيد في ايمانهم به رسوخا ، مع ان المسيحية
 لم تسع تعقلات وفكري القرن الثامن عشر (الراسيونالين) ، ولم
 تشف تعاليمها غليلهم ، ولم تجد الكنيسة الى إقناعهم سبيلا .



اسس مذهب المعتزلة

جاء في ص ٢٠ من ج ٤ من مروج الذهب صفحة

مفيدة يلخص فيها المسعودي آراءهم في التوحيد ، فيقول :

إن لهم خمسة اصول يتفقون جميعا عليها :

« ١ » وحدانية الله وطريقته إدراكها :

(ا) فالله لا يشبه الاشياء إذ هو ليس بجسم ولا عرض

ولا جثة ولا عنصر ولا ذرة ولا مادة .

(ب) بل هو خالق الجسم والعرض وما نعرف عن الذرة

والمادة ، ومخرج كل ذلك من العدم .

(ج) لا تدركه الحواس لافي هذا العالم ولا في الآخر .

(د) لا يوصف بالمساحة ، اي ليس له اتساع ولا طول

ولا كبر ولا صغر .

(هـ) ليس له زمان ولا مكان ولا اول ولا نهاية

(و) انه قديم خالد سرمدي ، وكل شيء عداه مخلوق .

«٢» مبدا الاختيار أو خالق الافعال :

(ا) ان لا يحب الشر .

ب (ان لا يخلق اعمال العباد ، لكن الناس يخضعون
لاوامر لا ويمتعدون عما نهاهم عنه بالقوة التي أعطاهم إياها
وخلقها فيهم .

«٣» الوعد والوعيد :

(ا) ان الله لا يغفر لمرتكبي الكبائر الا اذا تابوا .

ب (ان الله لا يخلف وعده كما لا يخلف وعيده ، فكلمته لا تتغير .

«٤» المزلتة بين المزلتين :

اي ان مرتكب الكبائر ليس بمومن ولا بكافر ؛ بل إنه فاسق
(وكل الاتقياء قد اجمعوا على هذا الاسم)

«٥» وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر :

(ا) وهذا واجب يتحتم القيام به على الجميع ، كل على قدر
طاقته ، فاما بالسيف واما بطرق اخرى . (١)

(١) والى هذا المعنى نفسه يشير الحديث الشريف « الصحيحان »
« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم
يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان »

ب) انه لا فرق بين الجهاد ضد الكفار والجهاد ضد صاحب
الكبائر « الفاسق » .

*

* *

هذه هي النقط التي تنفق عاينها جميع فرق المعتزلة ، ولا
تميز بعضهم عن بعض إلا بنقط ثانوية ، يقول المسعودي إنه قد تكلم
عنها في كتبه الأخرى ، لكن وبالأسف ، قد ضاعت هاته الكتب .



آراء المعتزلة

وهنا يأتي (م كارا) بما حكى أبو المحاسن [ج ١ ص ٣٤٨] عن
المسألة التي وقعت بين واصل بن عطاء والحسن البصري
وكانت سبب اعتزال واصل وإطلاق لفظة معتزلة عليه وعلى
أتباعه ، أرى أنها مسألة معروفة لا تحتاج إلى ذكرها هنا
خصوصاً وأن المؤلف لم يبين فيها أية فكرة وإنما عرضها عرضاً ،
ولهذا أنتقل بكم إلى ما بعدها .

*

* *

لقد سمي المعتزلة أعداؤهم بالقدرين لأنهم ينسبون أعمال
الإنسان إلى إرادته الشخصية ويرفضون القول بخضوعها للقدر ،
وهذا الاسم في الحقيقة - كما لاحظوا ذلك أنفسهم - ينطبق على
نظرية خصوصهم الذين ينسبون أعمال الإنسان إلى قدرة الله .

وقد أطلق المعتزلة (١) على أنفسهم أهل العدل والتوحيد

(١) للاستاذ أحمد أمين (فجر الإسلام ج ١ ص ٣٣٨) دراسة مفيدة

حول تسميتهم بالمعتزلة .

لأنهم يقولون :

ان الله تعالى يفعل وجوباً ما ينفع الانسان، ويجازي - وجوباً -
على الفضيلة (وهذا ما يسمونه بالعدل) .

ويرفضون الاعتقاد بصفات حقيقية وقديمة ثابتة في جوهر
الله ، وذلك خوفاً من ان تجعل هذه الصفات تعدداً في جانب الله
(وهذا ما يسمونه بالتوحيد) .

ويقررون جميعاً :

ان القدم صفة خاصة بالله ،

وينفون عنه الصفات المضافة إلى جوهره .

كما يعتقدون أن كلام الله (القرآن) مخلوق ومركب من
حروف وأشكال ،

وأنه لا يمكن أن يرى أحد الله في الدار الآخرة بعيون

الجسد .

ويلزمه تعالى أن يعيش العالم بحكمة ؛ وان لا يعمل إلا ما

فيه الصلاح ،

كما هو ملزم أيضاً بأن يجازي على الحسنات وعلى التوبة ،

وان يعاقب اصحاب الكبائر .

وبعد أن تكلم الإيجي عن أصل المعتزلة وعن العقائد التي
هم متفقون عليها ، انتقل الى كلام مفصل عن طوائفهم الكثيرة :
« إن المعتزلة (بالرغم عن كونهم متفقين على هاتئ النقطة
الأساسية) يختلفون في أخرى ، فينقسمون إلى عشرين مدرسة ،
كل واحدة منها تكفر الأخرى . »



مختلف مذاهب المعتزلة

ثم ياخذ الايجي يعدد تلك المدارس ويعطى ملخصا عن آرائها ، وسنرى منها الثلاثة الأولى ، ونشير هنا إلى أن الشارح السيد الشريف الجرجاني يصرح بأن المعتزلة قد تأثروا بكتب الفلاسفة القدماء (١)

*

* *

المدرسة الاولى :

الواصلون وهم أتباع واصل بن عطاء ، ينكرون صفات الله ، يقول الجرجاني إنهم اعتنقوا هذه المبادئ بعد قراءة كتب الفلاسفة (١) لكنهم يثبتون لله العلم والقدرة ويجعلونهما صفتين أساسيتين وهاتان الصفتان في نظر الجبائي إيضاح لكن الله الدائم ،

(١) الفلاسفة القدماء ، أو الفلاسفة (فحسب) أو (القدماء) هم اليونانيون (من باب التغليب) وأعلام الفلسفة الإسلامية إذ ذاك وهم الكندي والفارابي وابن سينا .

وحالات وأقانين في نظر أبي هاشم.

وترفض مدرسة واصل تعلق قدرة المرء بإرادة الله ،
ولا تنسب الشر لله .

وتقول بأن مرتكب الكبائر في منزلتين بين المنزلتين (ليس
بكافر ولا بمومن) .

ولهم آراء خصوصية في خلافة عثمان وفي الإمامة .

☆☆☆

المدرسة الثانية

وهي مدرسة أبي الهذيل ، أتى هذا العالم جيلين بعد
واصل ، ويعبد ، بعد ابن عطاء ، الرئيس المهم عند المعتزلة ، فقد
حمل رايتهم وأيد طرقهم .

ومذهبه أن الأشياء ، التي قضى بها الله ، والمخلوقات كل ذلك
سيفنى (هذا فكرة لا تبعد عن رأي جهم (٢) القائل بأن الجنة

(٢) هو جهم بن صفوان الخراساني ، وله مدرسة اشتهرت تحت اسم
الجهمية ، وهو من زعماء الجبرية الذين يدعون أنها لا اختيار للإنسان
ولا قدرة ، ويعبد جهم من المعتزلة مع أن هؤلاء لا يقولون بالجبر وذلك
لاتفاقه معهم على نفي الصفات عن الله وعلى خلق القرآن ، فقد صرح
بأن كل ماورد في القرآن من صفات الله (سمع ، بصر ، كلام ، ...)
يجب أن يؤول إذ لا يصح وصفه تعالى بصفات تشبهه بخلقه ، ويبنى على

والنار سيفنيان) .

وأن أعمال أهل الجنة والنار يجب ان يخلقها الله لأننا إذا كانت متعلقة بأصحابها (المؤمن منهم والكافر) يكون هؤلاء مكلفين أيضاً ويجوز على هذا إمكانية الجزاء والعقاب ، مع أن هذه الامكانية لا توجد في الدار الاخرى
وتريد هذه المدرسة قائلته :

إن أهل الجنة وأهل النار سيصيرون إلى حالة سكون دائم يحتوي على نعيم للنعمر عليهم وعلى آلام يشقى فيها المعضوب عليهم ،
وأن الله عالم بعالم هو هو ،

هذه الفكرة ان القرآن مخلوق لان نفي الكلام عنه تعالى ينفي طبعاً ان يكون القرآن كلام الله القديم ، على أن بعض كبار المعتزلة كانوا يمتبرأون من مذهبه ، قال أحدهم وهو بشر بن المعتز :

« ننفقهم عنا ولسنا منهم » ولا هم منا ولا نرضاهم
إمامهم جهنم وما لجهنم * وصحب عمرو ذي التقى والعلم ؟ .
وذو التقى والعلم هو عمرو بن عبيد من كبار رؤساء الاعتزال ومؤسسيه .
وبهذه المناسبة أنبه الى مقال ممتع للاستاذ الامام بالعروة الوثقى ،
عنوانه (القضاء والقدر) لاتخلو قراءته من فائدة لمن ليس له استقرار
فكري في مسألة الجبر والاختيار .

وقادر وقدرته هي عين ذاتها .

وانما يريد بإرادته ، وإرادته صفة ليست في مكان (وقد

سبق واصل إلى هذه الفكرة)

وان كلمة « كن » التي هي اساس الخلق ليست في مكان ،

أما الكلام الآخر من أمر ونهي وأمثال وغير ذلك فكله في مكان .

ولهذه المدرسة التي نتكلم عنها آراء خصوصية فيما يتعلق

بعلم الحديث ، فقد كانت تتقددا .

مات أبو الهذيل الملقب بالعلاف سنة ٢٢٦ هـ .



المدرسة الثالثة

هي مدرسة النظام (١) الذي قال عنه الجرجاني إنه أحد

شياطين القدرية ، درس الفلاسفة القدماء ومنزج أفكارهم بأفكار

المعتزلة ، يقول اتباعه :

إن الله لا يمكن ان يفعل بالعبد غير الصالح والاصالح .

وانه تعالى لا يمكنه ان يضاعف او ان يخفف العقوبات والآلام

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن سيار أستاذ الجاحظ في علم الكلام ،

ولد [بالبصرة سنة ١٨٥ و توفي ٢٢١] كان حاد الذهن دقيق

الاستنباط شاعراً كاتباً .

ويظنون ان الوسيلة الوحيدة لابعاد الشر والفواحش عن الله هي تجريدنا من السلطة عليها ، قال الشارح : فمثلهم كمثل من يرتمي بنهر حتى لا يبلله ماء المطر .

وقد قالوا ان معنى أن الله « يريد عمله » انه يخلقه طبقاً لما سبق في علمه ،

وان معنى أن الله « يريد عمل العبد » انه يأمر به ، فعندهم ان الانسان هو العقل وإنما الجسم آتته (فكرة أخذوها عن الفلاسفة) .

ويقول النظام بأن العقل جسم لطيف ينصب من الجسد كما ينصب ماء الورد في الورد ، والسمن في الحليب ، والزيت في الجاجلان ، فالاعراض والالوان والاذواق والروائح أجسام في نظرهم .

وأما المادة فهي مجموعة اعراض ، فمادة العلم والجهل والمعصية والكفر والايمان واحدة (١) ، هذه فكرة توجد عند

(١) ان رأي النظام في الاخلاق أنه ليست لها قيمة ذاتية ، بل هي نسبية تختلف باختلاف الاديان والبيئات ، وقد بسط هذا الرأي البغدادي ورد عليه متهمكما :

« وعليه ، يكون من قال للنظام انه ابن زني كمن قال له

الفلاسفة لكنهم يقولون بأن ذلك صورة تنطبع في القوة المفكرة:
 قد خلق الله الأشياء دفعة واحدة في مرة واحدة على
 الشكل الذي هي عليه الآن الصور والنباتات والحيوانات والناس،
 فخلق آدم لم يتقدم على خلق ذريته، لكن الخالق قد حجب
 المخلوقات ومتر بعضها في تقدم بعض، ويرجع تقدم هذا وتأخر
 هذا الى ظهورهما فحسب، وهذا فكرة سبق اليها أيضاً الفلاسفة
 حين دراستهم لمسألة الخلط الاول والتزميل والبروز (١)
 Le mélange inétial, l'enveloppement et l'extériorisation)

انما ابن حلال ... »

ويسوءنا ان نرى البغدادي يرد على النظام دون أن يتصور رأيي
 تصويراً تاماً، ولنظرية النظام انصار من علماء الاخلاق بأوروبا كثيرون
 (انظر كتاب كيفيلبي Cuvielير مثلاً الجزء الثاني

في الاخلاق (Manuel de Philosophie tome 2)

(١) وقد اخذ هذه الفكرة ملبرانش (Malebranche) الذي يقول
 بأن الاسباب [الموجبات] تندمج الى مالا نهاية لما ثم ينفصل بعضها عن
 بعض وكأنها مجموعة أغشية هـ (تعليق للمسيو كارا).

(أ) Nicolas de Malebranche [١٧٢٥ - ١٦٣٨]

ازداد ومات بباريز، ويعتد فيلسوفاً نظرياً وطبيعياً، كان شغوفة
 بآراء « ديكارت »، وآثاره هي :

البحث عن الحقيقة (Recherche de la Vérité) وكتاب التأملات المسيحية
 (Les Méditations Chrétiennes) ويمتاز على الخصوص بدراسات لما وراء الطبيعة

وقد ادعى أفراد هذه المدرسة بأنه في قدرة الانسان أن
يأتى بشيء جميل كالقرآن بل بما هو أحسن منه، لان جمال القرآن
ليس في أسلوبه بل فيما فيه من ايضاحات لغوامض الكون
وكانوا متشككين في صحة الاحاديث المروية،
ويدعون ان التواتر قابل للغلط وانه لا يمكن أن يعتمد على
الاجماع والقياس .
ويعترفون بحق علي .

*

نرى مما تقدم مقدار حيوية الحركة الفكرية عند هذه
المدارس ومقدار ما وصلت اليه من دقة وحداقية في البحث .
وليس في الحقيقة ما يخص الايجي ولا ما يخص الجرجاني ولا
مقالات الشهرستاني، الا حطام جهود فكرية ملأت اكثر من قرنين

☆☆☆

«ب» وهذه الفكرة نفسها عندنا بالقرءان العظيم [الآية ١٧٢ الحزب
١٨ سورة الاعراف] :

«واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم واشهدهم على
انفسهم : الست بربكم ؟ قالوا : بلى »

ويرجع الفضل في استنتاج هذه الفكرة من القرآن الى العلامة
القاضي سيدي محمد السائح فهو الذي ارشدني إليها

ومشاهير المعتزلة الآخرين هم : الجاحظ (١) الذي نعرف

آثاره في نواح أخرى أكثر منها في هذا الميدان ،

والجبائيان (الاب والابن) ، لكن مذهب المعتزلة أيام

الجبائي لاقى معارضة فعالة ضعفت شوكتها وأبطأت سيرها ، وكان

على رأس هذه المعارضة الامام الاشعري الذي قضى على ازدهارها .



(١) ابو عثمان الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ

إن افكار الفرقة الجاحظية « في ميدان الاعتزال » لم ترج روجان مصنفات ابى عثمان العلمية والادبية التي قال عنها ابو الفضل بن العميد الوزير : « كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والادب ثانيا . »

الخلفاء والصراع المذهبي

كان الخلفاء يشاركون في هذه الخصومات مشاركات عملية، فلم يكتفوا بجمع العلماء عندهم وحضهم على المناظرات بحضورهم، بل كانوا يقومون بدور مهم في هذه النزعات المذهبية، وكثيرا ما أوقفوا المشاجرات أو فرضوا آراءهم الشخصية، فيما يخص الإيمان، بفضل ما كان لهم من سلطة معنوية (لأن الخليفة هو الرئيس الديني) وما كان لهم من نفوذ مادي مطلق، فدراسة هذا الدور الديني الذي لعبه الخلفاء لا تخلو من أهمية، فإذا كانت تحط أحيانا من رأيهم ومن تسامحهم، فهي على الأقل تعيننا على تفهم سير هذا الهيكل الديني الشاسع الأطراف الخاضع لحكم الإله (مبدئيا): الإسلام.

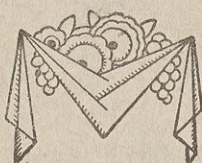
والمسألة التي اهتم بها الخلفاء في الوقت الذي نتحدث عنه هي مسألة خلق القرآن، فأسسوا لهذه القضية شبه ديوان التفتيش، وكانوا يديرونه بأنفسهم، فيسألون العلماء ويعاقبونهم

عقوبات صارمة ، ومن هنا مسألة (المحنة) المشهورة .

*

* *

وبعد هذا يسترسل (م كارا) يبسط مسألة خلق القرآن وما
لاقت من تأييد واعتراض ، ومحنة الإمام أحمد بن حنبل ، أرى
ان القراء يعرفون هذه الناحية ، أو على الأقل يمكنهم الرجوع
اليها بسهولة ، فالذي يهمنا هي آراء (م كارا) وملاحظات
ومقارناته ، أما ترجمته وقائع تاريخية معلومة فمن باب « هذا
بضاعتنا ردت إلينا » .



إظهار حق تسامح الخلفاء

يقول م كارا عن الخلفاء (في الفصل المتقدم) :

« ... فدراسة هذا الدور الديني الذي لعبه الخلفاء لا تخلو من أهمية، فإذا كانت تحط أحيانا من رأيهم ومن تسامحهم، فهي على الأقل تعيننا على تفهم سير هذا الهيكل الديني الشاسع الأطراف الذي هو الإسلام. »

إن هذا الدور لا يحط في شيء من قيمة هؤلاء الخلفاء، فهو إن دل على شيء، فإنما يدل على وفرة ثقافتهم التي كانت تمكنهم من المشاركة في مثل هذه المناقشات الفلسفية العالية.

لا أنكر ما كان (بعضهم) يظهره أحيانا من تعصب لآرائهم، وهذا شيء غريزي في الإنسان منذ كان، ونشاهد اليوم بكثرة عند الأحزاب المختلفة في مبدئها في الأمة الواحدة، فكمن أب يعادي ابنه، وأخ شقيقه، لأن أحدهما شيوعي مثلاً والآخر رأس مالي...

وهذا (فولطير Voltaire)، فمع شهرته العالمية بحريته
فكره وهجومه العنيف على التعصب، لم ينج من هذا الداء الذي
حاول حياة طويلة معالجة المجتمع منه، فلقد كتب مرارا في لهجة
حادثة وبغضب ضد من خالفوا الرأي، وتمنى مرارا أن يسجن
الذين لم يؤمنوا بعبادته أو انتقدوها، ولعمري أين هذا من التسامح؟
أما إذا تصفحنا تاريخ الحركة الفكرية بالغرب في القرون
الوسطى فإننا نجد المدهشات، فهذا يحرق لمجرد قراءته لكتاب
لا يقول به البابا، وهذا يشتق لأنه صرح بفكرة لا تقرها الكنيسة
(ولو في الميدان العلمي أنصرف، كدوران الأرض مثلاً) ومحنة
(غاليلي Galilée) (١) الإيطالي أشهر من أن تذكر وكذلك
مسألة معاصرة (ديكارت (١) Descartes) الفرنسي وما قاما
في سبيل أفكاره وما نصبت له ولكتبه من عراقيل (انظر تفصيل
ذلك في كتاب الدكتور جورج بوني عن ديكارت
Georgs Bonnet)، وهذان الرجلان عاها بعد الانبعاث
الإيطالي والنهضة الفرنسية، في القرن السابع عشر (وما
بالمهد من قدم! ...)

من هذا يظهر أن (هذا البعض) من الخلفاء لم يأتوا بما

(١) سيأتي الحديث عنهما.

يُحْجَل (نسبياً) ... بل على العكس قد سجلت أكثريتهم في تاريخ المعرفة مواقف، خالدة وأعمال سامية في سبيل الرقي العام، وقد كانوا يجعلون الإسلام مدنية وثقافة مشتركة لا عقيدة وتعبصا،

أو ديناً وجموداً، ومن هنا أخذ الكثير من أحرار الفكر، إسمرائيليين ومسيحيين وفرس، بحظ واف من المعرفة والتفكير الحر، ووجدوا أكبر تشجيع وعناية في مكتبات هؤلاء الخلفاء (صالحوناتهم)، وتاريخ (دار الحكمة) وما بذله المأمون لتراجعتها لأكثر دليل، فمفهم، وهم أكثر، بخديشوع وآل حنين وآل نوبخت

وقد أسهب أبو الفرج الأصبهاني بكتاب الأغانى، في التحدث عن مجالس الخلفاء الأدبية والفنية وعن مناظراتهم العلمية، كما استوعبت الكثير من ذلك مختلف كتب الآداب والتاريخ، وخص كذلك الدكتور أحمد فريد رفاعى في المجلد الأول من تأليفه (عصر المأمون) فصلاً عن تلك الاندية وتلك المناظرات وصورها تصويراً يجعلها أقرب ما يكون «بصالحونات» فرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

ومن تسامحهم أنهم كانوا يدنون منهم الفنانين والادباء والعلماء، من المسلمين وغير المسلمين، ويمنعونهم ثقتهم وتأيدهم بل

كثيراً ما قلدهم أعلى المناصب في الامبراطورية الإسلامية ،
واذكر على سبيل المثال : الأخطل النصراني الشاعر ومنكه الهندي
وسعيد بن يعقوب الفيومي (وهو أول يهودي الف بالعربية
في العقائد ، يدعو في كتابه الى تحكيم العقل وعدم الجود مع
النصوص الدينية) ، وموسى بن ميمون الملقب بأفلاطون اليهود
الذي تربي بين أحضان الاسلام وارتوى من ينبوع الثقافة الاسلامية .

*

* *

هذا من الوجهة الدينية والعلمية والفنية ، أما من الناحية
السياسية ، فيشهد التاريخ بأن في عصر المدنية الاسلامية ظهرت
الاحزاب المتباينة ، وتعددت الطوائف وكثرت النحل ، الشيء
الذي يجعلنا نعتقد أن حريية الفكر كانت سائدة إذ ذاك بفضل
تسامح أصحاب الحل والعقد .

ويروى لنا صاحب الاغانى الكثير من هجاء الشعراء
لمعاصريهم من الحكام والخلفاء ، من هؤلاء الهجائيين سليم بن
يزيد العدوي الذي كان يعلن سخطه على الوزراء ، بل يصرح
بذم الخلفاء ، يقول عن أبي جعفر المنصور وعن وزرائه :
« حتى متى لا نرى عدلاً نسر به * ولا نرى لولاة الحق أعواناً »

مستمسكين بحق قائمين به * إذ اتلون أهل الجور ألوانا؟
يا للرجال لداء لادواء له * وقائد ذى عمى يقتاد عميانا،

ولما قيل للامون (وهو خليفة) :

« إن دعبل الخزاعي قد هجاك . »

أجاب : « وأي عجب في ذلك ؟ هو يهجو أبا عباد ولا
يهجونى أنا ؟ ومن أقدم على جنون أبى عباد أقدم على حلمي .
وامثال هذا كثير وكثير جداً ، بيد اننا نلاحظ ان كل
هؤلاء الهجائين والمتهجمين على الخلفاء لم ينلهم سوء ، لانهم
كانوا يتمتعون بحرية القول كالصحافيين في بعض الامم لهذا العهد .



وما اجدرنى هنا ان افطن الى ان حرية الرأي حداً - حتى
في القرن العشرين ، وعند من يسمحون بها لشعبهم من الدول
الراقية - وانها لا تعطى جزافاً بلا قيد ولا شرط ، بل ان حرية
الرأي تخسوماً يجب على المرء ان يقف عندها ، فكل حرية
تجلب الامة الوبال والدمار يجب ان توقف بالعنف ، فمن ذلك
فتك بعض الخلفاء بوزرائهم ، محافظة على امن الدولة ، لما شعروا
بهم يغزلون في السراء لصالح الاحزاب المعادية للخليفة او

لا سرتهم (فمن حفر حفرة لغيره وقع فيها ^(١))، وكذلك حارب الخلفاء كل من شكوا في حسن طويقتهم لدولتهم أو لدينهم، كأولئك الذين تظاهروا بالإسلام وأخذوا يبدسون له في الخفاء، فهذه أنواع من الحرب السرية ومن واجب الذين على عاتقهم مسؤولية الأمت أن يواجهوها، وأن يقضوا على القائمين بها، دون أن يكون هذا العمل حاجزا بين الأمة وحرية الرأي، بل على العكس، إن القضاء عليهم من دعائم هاتم الحرية، لأنها لا تعيش وتزدهر الا مع السلم والأمن.

فإذا كان التصريح بآراء جديدة مبعثه البحث لا التشويش، وغايته الوصول الى الحقيقة لا الدس والغدر، عاش صاحبه آمناً مطمئناً، فالعري الذي حمل على جميع الأديان، والمتنبى الذي تطاول حتى ادعى النبوة، وابن سينا والفارابي الذان حاولا ملائمة الدين مع الفلسفة، والرازي الذي أنكر النبوة والأنبياء وزعم أن كتب الاغريق القديمة أنفع من الكتب المقدسة، والحاتمي الذي جعل درجة الصوفية أعلى من درجة النبوة وحاول توحيد جميع الأديان لان غايتها واحدة، كل أولئك زعماء في حرية الرأي، وكلهم استطاعوا أن يعيشوا تحت أكناف الاسلام، وان يصرحوا بآرائهم الغريبة التي سجلت حتى وصلت إلينا.

(١) مثل مغربي

الامام الاشعري

ثم يأتي بعد ذلك فصل عن حياة الامام الاشعري ومواقفه
ضد المعتزلة ، بعد أن كان منهم ، ورجوعه الى مذهب أهل السنة
ومقاومته لفكرة خلق القرآن (وهذا كله معلوم لانطيل
الوقوف فيه) ، قال مكارا :

لقد جعل الأشعري حداً لذلك النوع من الإباحة ، وما نتج
من التباس عن تفكير المعتزلة الذي تعدى حدود حرية الرأي ، وأعاد
لعلم الكلام وحدته ، وضبط السنة وحددها ، فالأشعري قبل
الغزالي هو الشخصية الممتازة في علم التوحيد العربي .

ولد بالبصرة سنة ٢٦٠ من أسرة يمنية كانت تتمتع بشهرة
طبيعية ، ومن أجدادها أبو موسى الأشعري الصحابي الذي زعموا
أنه كان يشتغل بالبحث في التوحيد وكان يعرض آراء أهل السنة
ضد عمرو بن العاص فاتح مصر .

*

★ ★

تقدم للاشعري أنه كان معتزلياً وأنه تكلم للجبياءى ، (وهو شيخ الاعتزال المبرز) ، فكتب سفيراً ضخماً دفاعاً عن مبادئ المعتزلة . ثم انتقل فجأة إلى مذهب أهل السنة وعمره إذ ذاك أربعون سنة .

ولسبب هذا الانقلاب الفجائى تفاسير مختلفة ، من ذلك (ما يوجد فى حكاية تنسب إليه) أنه شاهد النبى ثلاث مرات متتابعة فى رؤية [!] وأنا طلب منه ان يتخلى عن المنطق ليعتق السنة ، فلاحظ الأشعري ان الاحاديث محل للشك كما يرى المعتزلة ، فأجاب النبى بأنه على العكس ، فالشك يتسرب إلى الحجج العقلية .

هذه حكاية غير متحققة الوقوع ، فأقرب منها إلى القبول كون الاشعري لاحظ ان المناقشات بإفراط لا بد ان تصل إلى سوء العقبى ، من الناحية الدينية ، كما اتفق انه اختلف مع استاذة فى بعض النقط ، يقول [D'ohsson (١) دو هسون] إنه انفصل عن الجبياءى لمسألة الصبيان :

سأل الاشعري استاذة هل براءة الصبيان تستلزم لهم الخلود

في النعيم فأجاب شيخ المعتزلة بالسلب معللاً ذلك بأنهم لم يحصلوا على اجر الاعمال فيمخولهم الجنة .

فلاحظ الاشعري : وهل يعد جريرة في حقهم كون الله لم يترك لهم الوقت لذلك ؟

فأجاب الشيخ : بلا شك ، لاننا سبق في علمنا تعالى انهم لو كبروا لصاروا كافرين .

الاشعري : فعلى هذا ، كل من عاش [وقد صدرت منه ذنوب طبعاً] يمكنه ان يحتج على الله لاننا لم يمتهم صغيراً .

لم يجد الجبائي لهذا جواباً ، فودع الاشعري .
هذه نقطة من نقط المناقشات المعروفة في علم الكلام .

*

* *

لم يودع الاشعري البحوث المنطقية [اى الكلام] بالمرّة ، رغم خروجه من مذهب المعتزلة ؛ وإنما نظمها وعدلها وحصرها في حدود تنفق والسنة ؛ نعم ، سيبقى ممثلاً للتوحيد المبني على البحث العقلي بيد انه توحيد في دائرة السنة ؛ اما للغزالي فسيذهب الى ابعد من هذا في الرد على اصحاب الكلام ، وسيجعل في التوحيد الاخلاق والعاطفة حظاً كبيراً .

لقد ألف الأشعري كتباً عديدة انتقادية لم يحتفظ لنا ابن
عساكر إلا بعناوينها؛ فيذكر منها أكثر من عشرين، أولها كتاب
ضد الزنادقة والمارقين من الدين، كالفلاسفة والطبيعيين
والهوليين والمجسمين، وفيه دحض لما عليه البراهمة واليهود
والمسيحيون والزرادشتيون، وهو كتاب في ١٢ سفراً، وقد
لخصه المؤلف، لكن وبالأسف، قد ضاع هذا الكتاب مع ماضع
من منتوجات الأشعري، فلو لا ذلك لاستفدنا منه اليوم فائدة ثمينة.

*

* *

لم يبق لنا من مصنفات هذا العالم إلا خمسة أو ستة كتب،
[راجع هذا الموضوع عند المستشرق الألماني بروكلمان]،
منها كتاب الإبانة، يتكلم فيه عن الله وإرادته واثبات رؤيته
وعن القرآن والإيمان، والقدر، والامامة؛ وهناك باب في إبانة
قول أهل الزيغ والبدعة، وآخر في إبانة قول أهل الحق
والسنة، ونعرف فكرة الأشعري من عشر صفحات كتبها عنه
الشهرستاني ومن نبذة لابن عساكر في نفس الموضوع، ونعثر
هنا وهناك في كتب التوحيد (الفلسفي) على إشارات إلى
الأشعري والأشعريين، كما عند التفنزي والسيد الجرجاني

بعد هذا يبسط (م كارا) عقائد الاشعري ، أرى انها معلومة ،
خصوصا وان جل المغاربة أشعريون (عن طريق الوراثة
في اغلب الحالات) ! ...

وتكميلا للفائدة أزيد هنا نظرة عن كتاب الابانة ، وأشير
الى مؤلفين آخرين من مؤلفات الاشعري :

*

* *

الابانة عن أصول الديانة :

طبع سنة ١٣٤٨ هـ ، عنيت بنشر لاومراجعة أصوله والتعليق
عليه ، إدارة الطباعة المنيرية المصرية ، وهي طبعة متقنة ،
وطبع قبل ذلك بحيدر آباد سنة ١٣٢١ هـ .

ويقع في ٧٤ صفحة من الحجم المتوسط .

وهو مجموعة ردود يوجهها الأشعري ضد المعتزلة بالخصوص ،
ويتبع أحيانا طريقة في المحاجة لطيفة : يورد أسئلة ويحجب عنها ،
فانظر مثلا عنوان باب من أبوابه :

(باب الكلام في الارادة ، والرد على المعتزلة ، وإيراد

أسئلة والجواب عنها) .

وهذا من أحسن نماذج العناوين .

مقالات الاسلاميين:

ومن جملة كتب الاشعري التي سلمت من اغتصاب
الايام (مقالات الاسلاميين).

كانت نسخة خطية منه بمكتبة أيا صوفيا ، وطبع بتركيا
منذ سنوات قليلة ، يقع في سفيرين .

*

* *
استحسان الخوض في الكلام:

رسالة صغيرة (١٢ صفحة من الحجم الصغير) طبعت
بجيدر آباد سنة ١٣٢٣ هـ .



القسم

الثاني

العقائد

عقائد النسفي

لم يكن للاسلام جماعات تحدد معتقداتها كجماع الأمازيغية عند المسيحية ، لكن الكثير من علماء قد حللوا هذه المعتقدات في مصنفات قصيرة تسمى بالعقائد (راجع مقالنا في هذا الموضوع بدائرة المعارف الاسلامية) ، منها مصنف للاشعري ، وآخر للغزالي (١) وثالث لابن تومرت مهدي الموحدين (انظر م كولد زيهـر Goldziher : كتاب محمد بن تومرت - ١٩٠٣ - طبعة الجزائر) ، وآخر لبعض الصوفيين كسيدي الجيلاني (١) ، بيد أن أشهر هذه المصنفات هي عقائد النسفي ، العالم الحنفي الذي عاش في القرن الثاني عشر ، (وهناك نسفيان قد شرح أحدهما الآخر ، فالاول هو أبو حفص عمر النسفي المتوفى سنة ٥٣٧ ، راجع كتابنا - مفكر و الاسلام ج ٣ - في فصل الحديث) ، وهذا التصنيف (أي عقائد النسفي) بمثابة ملخص للعقيدة الاسلامية ، فلمن

(١) : انظر الفصل الذي يلي .

هذا الناحية شبه (بكريدو ^(١)) الذي عندنا) على أنه أطول منه وأقل منه تنظيما ، وبس ٥٨ عقيدة ، وقد اشتهر كثيرا ، فهو (كما يقول دوهسون D'ohsson) بالمدارس العمومية الحكومية بتركيا بمثابة الكاتيشيسم ^(١) عند النصارى .

ترجم [دوهسون] هذا العقائد وأضاف إليها تعاليق تاريخية مفيدة ، وهذا التعاليق هي محتويات الجزء الاول من كتابه : مشهد الامبراطورية العثمانية [نشر هذا المصنف وطبع بالشرق خصوصا باسطنبول عام ١٣١٣ مع شرح التفترانى] ، وناتى هنا بجمل من هذا العقائد لتصور مقدار الصبغة الفلسفية التى فى هذا المصنف الصغير .

يستهل النسفى بمقدمة يتكلم فيها عن العلم :
« حقائق الاشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق ، خلافاً للسوفسطائية ،

وأسباب العلم للخلق ثلاثة :

١ [الحواس السليمة .

٢ [الخبر الصادق .

٣ [العقل .

ثم يفسر النسفى هذا الاسس الثلاثة للمعرفة :

(١) انظر الفصل الذي يلي .

(١) فالحواس السمع والبصر والشم والذوق واللمس .

(٢) والخبر الصادق على نوعين :

أ - الخبر المتواتر ، وهو الثابت على السنة قوم لا يتصور

تواطؤهم على الكذب ، وهو موجب العلم الضروري .

ب - خبر الرسول المؤيد بالمعجزة وهو موجب العلم الاستدلالي

(٣) العقل سبب للعلم ايضا ، وما ثبت منه بالبديهة فهو

ضروري ، كالعلم بان كل الشيء أعظم من جزئه «

وبعد تقرير النسخي لهذا الاسباب الثلاثة يرفض القول بأن الالهام

من اسباب المعرفة مع كون الصوفيين يجعلونه الاساس الاوحد للمعرفة

وتبتدىء بعد هذا العقائد :

الاولى ان العالم حادث : « والعالم بجميع اجزائه محدث »

ثم يبنى على هذا عقيدتين يظهر انهما اقرب الى الفلسفة منهما

الى علم الكلام ، وهما :

أ - ان العالم مركب من اعيان واعراض : « فالايمان مالم

قيام بذاته ، والعرض مالا يقوم بذاته »

ب - مسألة (L'atomisme) اي تركيب المادة من ذرات

« الجوهر هو الجزء الذي لا يتجزء » .

وعلى هذا تكون النظرية القائلة بتركيب المادة من ذرات من قبيل المعتقدات (١).

والعقيدة الثانية تتعلق بالاله: « المحدث للعالم هو الله الواحد، القديم، الحى، القادر، العليم، السميع، البصير، المرید ». هذا هى الصفات الايجابية.

ثم يسرد المؤلف الصفات السلبية:

« ليس بمصور، ولا محدود، ولا متبعض، ولا محدود، ..

لا يشبهه شيء ... »

ثم يزيد بعض الصفات الايجابية - زيادة على ما تقدم، ويعيد اخرى تقدمت :

« العقل والقدرة والحياة والقوة والبصر والكلام، وهو متكلم بكلام هو صفة له ازلية ليس من جنس الحروف والاصوات، وهو صفة منافية للسكون (٢) »

(١) إن نظرية (الاطميسم) Atomisme ليست من المعتقدات مباشرة بل من مجرد البحث كالمناطق بالنسبة للتوحيد، فقواعد المنطق ليست هى نفس علم الكلام، كذلك هذه الفكرة هى حجة فلسفية تركز عليها بعض العقائد وليست من نفس العقائد.

(٢) قارن بين هذا وبين ما يقوله الغزالي في هذا الموضوع بالفصل الذي يلي.

اما العقيدة الثالثة فتختص بالقرءان :

« القرءان كلام الله تعالى غير مخلوق » .

هذه العقائد الاولى هي المهمة، وعليها يرتكز الايمان ،

وليست العقائد الباقية الا تحليلا لها ، وموضوعها :

التكوين وإرادة الله ورؤيته : « ورؤيته تعالى جائزة

في العقل واجبة بالنقل » .

ثم تأتي عقائد تختص بالآخرة كعذاب القبر ومسؤال منكر

ونكير والبعث وما يتعلق به ...

ثم يصل بنا النسق الى مسائل مرتكب الكبائر - التي راينا

نظر المعتزلة فيها - فيقول :

« والكبيرة لا تخرج العبد المومن من الايمان ولا تدخله

في الكفر ، واهل الكبائر لا يخلدون في النار » .

وننتقل بعد هذا الى الايمان والاعمال والاسلام : « والايمان

في الشرع هو التصديق بما جاء النبي عليه السلام به من عند الله

والاقرار به ، واما الاعمال فهي تتزايد في نفسها ، والايمان لا

يزيد ولا ينقص ، والاسلام والايمان واحد (١) .

(١) اما صريح القرءان فيخالف هذا التصريح : « قالت الاعراب

آمنا ، قل : لم تؤمنوا ، ولكن : قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم »

و يتبع هذا بالكلام على النبوة والخلافة والامامة .
 واما العقائد التي تاتي بعد العقيدة التامعة والثلاثين، فهي
 تتابع بلاصلة تجمع بينها، تتكلم عن موضوعات مختلفة، ويمكن
 بعضها ان يكون تنمة لما تقدم، نشير منها إلى صلاة الجنازة، وانها
 تكون على البر والفاجر، والاعتقاد بالجنة للعشرة المبشرين
 (العقيدة ٤١)،

وان تصديق الكاهن بما يخبر عن الغيب كفر (العقيدة ٥٢).
 ثم يقول ان ما ذكر النبي من اشراط الساعة حق (العقيدة ٥٦)
 وان المجتهد قد يخطئ وقد يصيب (العقيدة ٥٧).

كل هذا الفصل يدلنا على ان النسفي لم يستهن بالفلسفة
 بالرغم من كونه عاش بعد الغزالي الذي شن عليها الغارات، كما
 انه لم يتوق استعمال العبارات العلمية، مع انه كان يكتب للعامة .

وقد شرح غير واحد مصنفه، واحسن هذا الشروح هو
 شرح التفهيم لآني، وقد تكلمنا عنه في كتابنا عن الغزالي (١).
 فالناحية الفلسفية في هذا الشرح مستفيضة، وهو نوع من علم
 الكلام المبني على القياس العقلي، ونلاحظ هنا إذن ان هذا النوع

(١) كتاب الميسو كارا باللغة الفرنسية .

قد بقي مزدهراً بعد النزالي، فلا تُهم الشرق ذوق حاد في البحوث
الفكرية لا يمكن ان تزحزح عنه.

إن تأليف الفتازاني دقيق جداً ومهم من حيث كثرة
المحاجات الموجهة ضد المذاهب الغير السنية.

ولد العالم سعد الدين مسعود الفتازاني سنة ٧٢٢ بتفتازان [١]
وكان مدرّساً بسرخس [٢] ثم نقله تيمورلنك [٣] الى سمرقند [٤]
فمات بها عام ٧٩١ هـ (١٣٩٧) وتم شرحه على العقائد النسفية
سنة ٧٦٨ [١٣٦٧ م] بخوارزم.



«١» تفتازان : قرية كبيرة من نواحي نيسى وراء الجبل
«٢» سرخس : مدينة قديمة من نواحي خراسان، كبيرة واسعة
وهي بالقرب من نيسابور.

«٣» انظر الكلام عنه في الفصل الذي بعد هذا.

«٤» سمرقند : قيل إنها من بناء ذي القرنين «١» «انظر ياقوت»
وهي مدينة من مدن التركستان، كانت مقر حكم الطاغية التتري تيمورلنك،
واشتهرت بمعاهدها العلمية الكبرى، وتخرج منها كثير من علماء الاسلام،
وهي الآن نقطة تجارية ذات شأن بين الهند وآسيا الشرقية.

تعاليق

على هامش العقائد

(١) كتاب عقيدة أهل السنة :

يتولم كارا في الفصل المتقدم إن لأبي حامد الغزالي مصنفاً في العقائد دون أن يعطينا اسم هذا المؤلف ، ويظهر لي أنه يشير إلى مصنف اسمه (عقائد أهل السنة) ، وهو كتاب صغير جداً ، طبعته مطبعة النيل بمصر في سنة ١٣٢٣ هـ مشروحاً بقلم الشيخ محمد بن يوسف الشهير بالكافي تحت اسم : (كتاب الحصن والجنة على عقيدة أهل السنة) .

جاء في آخر صفحة من هذا الكتاب ص ١٦٢ تقرير للشيوخ التونسي محمد أبي شارب الهلالي (من فقهاء جامع الزيتونة) « فإن أعظم العلوم علم العقائد وإن من أحسن »^١ هذه الرسائل وضعاً وأعودها نفعاً ، الرسالة الموسومة بعقيدة أهل

« ١ » أنقله هنا لأنه يعطى صورة صغيرة عن هذا المصنف .

السنة المعزولة لحجة الإسلام والمسلمين الاستاذ أبى حامد الغزالي،
تلك الرسالة التي جمعت فأوعت ، وعمت بنفعها وما خصت ،
سوى أنها ما كانت لتخلص من لفظ غريب يفتقر إلى إيضاح ،
ومعنى خفي يستدعى مزيد الإيضاح »

نقتطف من هذه الرسالة ما يقوله أبو حامد عن كلام الله
(انظر الفصل المتقدم ص ٦٩) ، قال :

« وأنها تعالى متكلم ، أمر ، نالا ، واعد ، متوعد ، بكلام
أزلى قديم قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق ، فليس بصوت يحدث
من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام ، ولا بحرف ينقطع باطباق
شفة أو حريك لسان ، وأن التوراة والانجيل والزبور كتبها
المنزلة على رسلهم عليهم السلام ، وأن القرآن مقروء بالأسنة
مكتوب في المصاحف محفوظ في القلوب ، وأنها مع ذلك قديم
قائم بذات الله تعالى ، لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى
القلوب والاوراق ، وأن موسى صلى الله عليه وسلم سمع كلام
الله بغير صوت ولا حرف »

*

* *

(٢) الجيلاني :

هو المولى عبد القادر الجيلاني والجيلي (الجيلالي كما يسميه
المغاربية) توفي ببغداد سنة ٥٦١ هـ.

كان من شيوخ الصوفية ولما أتباع كثيرون الى يومنا
(خصوصا بشمال افريقيا)

وهو مؤلف (انفتح الرباني والفيض الروحاني) ، كتاب
في التوحيد على طريقة الصوفية ، وله كتاب آخر (فتوح الغيب)

*

* *

٣. - (Credo كريدو)

كلمة لاتينية معناها (أعتقد) ، ويترجمونها بـ (قانون الايمان)
تطلق على كتاب صغير يضم المعتقدات المسيحية التي
تقرها الكنيسة ، وهانص هذا القانون :

«أؤمن بالله الأب القادر على كل شيء خالق السماء والارض ،
وبسيدنا عيسى المسيح ابنه الوحيد ربنا الذي حملت به
مريم العذراء من الروح القدس وتعذب في زمان (البنطى
بيلاطس) ، وصلبوا ومات ودفنوا ونزل الى الجحيم ، وفي اليوم
الثالث قام بين الموتى وصعد إلى السماء وجلس على يمين الله
الأب القادر على كل شيء ، ومن ثم ياتي ليحاسب الاحياء والاموات.

أومن بالروح القدس .
وبالكنيسة الكاتوليكية المقدسة .
وبجماعة القديسين .
وبغفرة الذنوب .
وبقيامته الأجساد .
وبالحياة الدائمة .

*

* *

٤) اما (Catéchisme كاتيشيسم) فهو يحتوي على تعاليم
واسرار الديانة المسيحية الكاتوليكية ، باختصار ، وهي مبسطة
على طريقة السؤال والجواب تسهيلا على العامة والصبيان .
وهامثال من الدرس الاول ، عنوانه : الكتاب المقدس .
سؤال : ماهي الحقائق التي يجب ان نؤمن بها ؟
جواب : الحقائق التي يجب علينا ان نؤمن بها هو ماتقرره
الكنيسة مما اوحى الله الى الناس .
س : اين توجد هذه الحقائق ؟
ج : يحتوي عليها الكتاب المقدس والاقوال المروية
عن الحواريين .

(وبالكاتيشيسم) صور، منها صورة الإله وقد تجلى
لموسى، وأخرى تمثل آدم وحواء بالجنة عند وقوع قصة الشجرة،
وصورة العذراء، وغير ذلك

والى جانب قسم المعتقدات (كريدو الذي رأينا) والتعاليم،
ياتى قسم خاص بالاخلاق التى يجب ان يتبعها كل مسيحى،
وهي مئة عشر امراً، منها عشرة من عند الله ومئة من
مقررات رجال الكنيسة .

ثم هناك قسم ثالث في العبادات .

*

* *

(٥) تركيب المادة من ذرات (Atomisme)

في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد كانت مسألت
تركيب المادة والبحث عن عنصرها الاول تشغل أكثر من غيرها
بحوث الفلاسفة باليونان :

قال أحدهم إن العنصر الاساسى في المادة هو الماء .

وزعم ثانى أنه الهواء .

وادعى ثالث بأنه النار .

وقال فيثاغور Pythagore (فيلسوف وحيسوبى)

لابل الاعداد .

وبعد هؤلاء أتى ديموكرىت Démocrite (فيلسوف يونانى عاش فى القرن الخامس ق م) فقال بالذرات .
وكان من جراء هذه الاختلافات أن تأمس فى القرن الخامس ق م (مذهب الارتيابيين Le Scepticisme) القائلين إنه لا توجد أية حقيقة ولا يمكن الوصول الى أية معرفة .

(٦) تيمورلنك

عرف القرن الثامن للهجرة طاغية جبارا هو السلطان المغولى الشهير تيمورلنك، ويسمى بتيمور (او تيمورلنك اى تيمور الاعرج)

ولد بقرية قريبة من سمرقند سنة ١٣٣٦ م ، ٧٣٧ هـ فى أسرة فقيرة (كان أبوه راعيا) .

خرج عام ٧٦٠ هـ وقضى أيام حكمه فى سلسلة حلقات حروب ضد أمراء خراسان وأفغانستان وروسيا ومصر .

غزا الشام واستولى على حلب سنة ١٤٠٠ م فخرج إليها ملك مصر فرج بن برقوق ليدافع عن دمشق ، واستصحب معه فى الجيش - كما سيفعل نابليون بونابارت فى واقعة الأهرام عند

حملته على بلاد الكنفانة - جماعة من العلماء والقضاة ، وفي طلبيتهم
المؤرخ المغربي عبد الرحمن بن خلدون الذي يقول عن الطاغية :
« يخطيء أولئك الذين يقولون إن الرجل عالم جداً ، فهو
رجل وافر الذكاء مولع بالمجادلة فيما يعلم وما لا يعلم » .

مات هذا القائد التتري العجيب في شعبان سنة ٨٠٧ هـ
(١٤٠٥ م) في طريقه نحو الصين ليحتلها ، بعد أن عمر أكثر
من ثمانين سنة ، وكانت مدة حكمه ٣٦ عاماً .

وينسب له بعض الكتاب من الافرنج رسائل في
السياسة والعسكرية .



كتاب المواقف

من أهم الكتب التي تتصل بموضوعنا كتاب المواقف
للإيجي الذي اشتهر في الشرق في حياة مؤلفه ، غير أنه ما يزال
تقريباً مجهولاً عندنا .

هـ- وعضد الدين الإيجي من علماء الكلام بالقرن الثامن ،
مات سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٥ م) بعد أن نال صيتاً بعيداً ، فقد
شرحت كل مؤلفاته شروحاً وشروحاً ، ومن بين أسماء الشراح
نجد كثيراً من الأتراك .

طبع كتاب المواقف طبعة جيدة باسطنبول في مفرق
ضخمين (سنة ١٢٣٩ هـ) (١) وإلى جانب متن الإيجي ثلاثتا
شروح أهمها شرح السيد الشريف الجرجاني ، وهذا الشارح
نفسه فيلسوف وعالم معروف جداً بالشرق ولد سنة (١٣٣٩ م)

(١) أي سنة ١٨٢٤ م ، كما طبع عام ١٨٤٨ الجزءان ٥ و ٦ مع شرح
الجرجاني بليزنيق Leipzig بعناية (Th. Soerensen سو إيرسي)
وبالقاهرة عام ١٣٢٩ هـ ١٩٠٧ م .

٧٤٠ هـ وتعرف بواسطة التفقازانى بأحد الامراء من آل جعفر
فعينهم مدرسا بشيراز (١) ، ولما استولى تيمورلنك على هذه البلدة
عام ٧٨٩ هـ نقلهم الى سمرقند . وبعد وفاة تيمور رجع الى شيراز
فمات بها سنة ٨١٦ هـ .

ولم كتاب في اصطلاحات علم الكلام وخصوصا في
التعاريف الصوفية سماه (كتاب التعريفات) وهو مشهور قيم
جداً (طبع بالقاهرة عام ١٢٨٣ هـ وطبعه أيضاً Flugel سنة
١٨٤٥ م بألمانيا . بليزنيق Leipzig) .

وقد كتب الجرجاني أيضاً مصنفاً في فلسفة التوحيد كما فعل
عضد الدين .

وكتاب المواقف يبحث في علم الكلام ، يقول المؤلف
في (ج ١ ص ١١) بأن معاصريه لم يعتنوا بهذا العلم كما يجب ،
فأخذ هو على نفسه أن يقوم بحملهم فأنشأ أفكار الغزالي في تهديم
علم الكلام والخط من قيمته ، حتى يصبح هذا العلم في المنزلة
اللائمة به ، قال :

(١) شيراز : مدينة فارسية ، وأول من عمرها القائد العربي محمد
بن القاسم الثقفي ، ثم بنى سورها وأحكم تحصينها في القرن الخامس .
وينسب اليها عدة من مشاهير الفرس والعرب .

« ان أرفع العلوم وأعلاها وأنفعها وأجداها، وأحرأها بقدر
 المهمة بها وإلقاء الشرائع عايتها، وإدآب النفس فيها وصرف
 الزمن إليها، علم الكلام المتكفل بإثبات الصانع وتوحيد لا وتنزيهه
 عن مشابهة الأجسام واتصافه بصفات الاجلال والإكرام، وإثبات
 النبوة التي هي أساس الإسلام وعليه مبني الشرائع والأحكام،
 وبه يترقى في الإيمان باليوم الآخر من درجة التقليد الى درجة
 الإيقان، وذلك هو السبب للهدى والنجاح، وأنه في زمننا هذا
 قد اتخذ ظهرياً وصار طلبه عند الاكثرين شيئاً فرياً، لم يبق منه
 بين الناس الا قليل، ومطمح نظر من يشغل به على الندرة قال
 وقيل، فوجب علينا ان نرغب طلبته زمامنا في طلب التدقيق
 ونسلك بهم في ذلك العلم مسالك التحقيق، وإنى قد طالعت
 ما وقع الى من الكتب المصنفة في هذا الفن، فلم أرفيها ما فيه شفاء
 لعليل أو رواء لغيل »

ثم يسترسل الإيجي يتكلم عن مميزات كل مؤلف مما
 درس، ويقول إنه قد فكر طويلاً في برنامج ما كان سيقوم به،
 وراجع مراراً ما كتب، فأصلحه وهدبه، موضحاً ما غمض وما خفا
 ما أظن، حتى أتى الكتاب على الشكل الذي أراد.

وفي الجملة فإن أسلوب هذا المؤلف موجز شاق ، فضخامة
الكتاب ، آتية من طول الشرح والحاشيتين ، وبرناجه متسع
كثيراً ، فهو يضم مجموع الفلسفة والكلام ، وينقسم الى
سنة مواقف مجزأة الى مرصداً ، ويحتوي كل مرصد على مقاصد ،
ويمكن ان يعتبر كل موقف كتاباً .

يستهل المؤلف بفتحته عن العلم :

يتكلم اولاً عن مطلق العلم من علم حادث وكسبي
وضروري ونظري ومعرفة الاسس الاولى ، ويحلل افكاراً في
الحق والباطل ، وهذا هو القسم المنطقي ،

والموقف الثاني :

عبارة عن نظرية شاملة في (ما وراء الطبيعة ^(١)) او الامور
العامة كالوجود والعدم والمادة والواجب والجائز والوحدانية
والكثرة والسبب والمسبب .

والموقف الثالث : يختص بالاعراض .

واما الموقف الرابع :

«١» أي مالا يختص بقسم من أقسام الموجود التي هي الواجب
والجوهر والعرض « كما جاء في النص العربي » .

فهو قسم متسع جداً يذهب من علم الطبيعة الى علم النفس ،
وقسم علم الطبيعة مهم جداً نجد فيه المسائل التي نجدها عند ابن
سينا كقابلية المادة للتجزء ، (١) والفضاء ، والحرارة وغير ذلك ،
كما نجد مقالات في الأفلاك السماوية وفي الأرض ، والجبال ،
وباختصار في مجموع العالم المادي .

ويأتي بعد ذلك علم النفس ، إثر علم الطبيعة بدون أدنى
فاصلة ، فيتناول هذا القسم فكرة الارواح النباتية والحيوانية
والإنسانية وخواصها ، والذاكرة والمخيلة وغير ذلك . ويتكلم
عن الارواح المنفصلة عن الاجساد وعن العقول
وأما الموقفان اللذان يتبعان ، فيتعلقان بالتوحيد :

الخامس : في الله وفي صفاته ،

والسادس : فيما نزل به الوحي ، فيبسط المؤلف هنا مسائل
النبوة والبعث واليوم الآخر .

ويختتم كتابه بذييل عن المذاهب .

☆☆☆

إن لهذا الكتاب ميزة خصوصية ، فعرض الأفكار موجز
والبحث مدقق ، فالإيجي مؤلف ألمعي يحسن إحكام أعماله ، لكن
« ١ » هذه نظرية أنحت اليوم مقطوعاً بها بفضل تقدم الآلات والكهرباء .

قيمتها الحقيقة في اتساع معلوماته ، فقد أجهد نفسه في التعمق

في دراسة من سبقه من العلماء ، فهو ينقل كثيراً عنهم ويناقش أقوالهم ، وينقسم هؤلاء العلماء الى ثلاثة أقسام :

(أ) الحكماء ، ويكثر من ذكر ابن سينا على الخصوص .

(ب) المعتزلة ، فيذكر الكثير منهم ، ويظهر أنه يعرف

معرفة جيدة كل إرائهم وما بين مذاهبهم من اختلاف .

(ج) المتكلمون وهم أهل مذهبه .

ما أظن أنه نقل رأياً عن القدماء كإفلاطون وأرسطو ،

فقد درس فلاسفة أمته ، ولم يذكر إلا اسم أقليدس عند احتياجه

ضد إمكان انقسام الأجرام الى اللانهاية (ج ٢ ص ٢١٠)

*

* *

ولنتصفح الآن القسم الخاص بالأعراض ، يقول الأبيحي :

« أما العرض عندنا (أي عند المتكلمين) فموجود قائم بتحيز ،

وأما عند المعتزلة فما لو وجد لقيام بالتحيز لانه ثابت في العدم

عندهم ، ويرد عليهم الفناء فيانه عرض عندهم ولا ينعكس على

أصل من أثبت عرضاً لافي محل كأي التهذيل للكلام ، وأما

عند الحكماء فما هيته إذا وجدت في الخارج كانت في موضوع

أي في محل مقوم (١) »

أقسام الاعراض :

« ... العرض عند المتكلمين إما أن يختص بالحى ، وهو الحياة وما يتبعها من الادراكات بالحواس وغيرها كالعلم والقدرة ، وإما أن لا يختص به وهو الاكوان (المنحصرة في أنواع أربعة : الحركة والسكون والاجتماع والافتراق) ، والمحسوسات (الأصوات والروائح والطعوم والحرارة وغير ذلك) ، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الأكوان - بأنواعها الأربعة - محسوسة ، بيد أن الأغلبية لا يقولون بذلك ، لأننا لانشهد الا المتحرك والساكن والمجتمعين والمتفرقين ، ولانشهد الحركة والسكون والافتراق والاجتماع ، وكل محسوس من هذه المحسوسات يحتوي على اعراض غير متناهية مختلفة) ، وقد ذهب الحكماء الى ان العرض منحصر في المقولات التسع ، (٢) ولم يأتوا في الحصر بما يصلح للاعتماد عليه ، وعمدتهم الاستقراء . »

ويزيد الأيجي قائلاً بأن الفلاسفة يرون ان العرض إيمان

« ١٥ » ج ٥ ص ٦ : الموقف الثالث في الاعراض ، المرصد الاول

في ابحاثه الكلية .

« ٢٠ » انظر تعليقا على ذلك في اآخر الفصل .

يقبل لذاته القسمة كالكم ، وإما ان لا يقبل القسمة لذاته ومن
هذا القسم الاخير الكيف وهو عرض لا يقبل القسمة لذاته ،
اما السبعة الأخرى فتقبلها وهي : الأين والتمتى والوضع والملك
والانهاضة والفعال (التأثير) والافعال ، وقد كانت هذه التقسيمات
موضوع بحث ومناقشة ، ومن بين الذين ذكر اسمهم اثناء
المحاجة ابن مينا والامام الرازي ، ثم يقول الايجي بأن ابن مينا
قد احتج على الحصر بما خلاصته :

ان العرض ينقسم الى كم وكيف ونسبة ، وان غير ذلك
جوهر ، فحصر اقسام الموجود في هذه الاربعة .

لا يمكننا ان ننكر قيمة هذه الصفحات من كتاب الايجي ،

فهو بحق مانح رائع يستحق ان يعد من منتخبات التاريخ
العام للفلسفة .

ثم يبحث الايجي بكيفية عويصته : هل الغرض ينتقل من

محل إلى محل ، واخيراً يسفر البحث عن نتيجة سلبية ، فالعامية

يعتقدون ان رائحة التفاح تنتقل منه إلى ما يجاوره ، وان الحرارة
تنتقل من النار إلى ما يماسها ، لكن من على مذهبه من المتكلمين

يقولون إن الحاصل في المحل الثاني هو عرض (١) آخر :

إننا نشم رائحة أخرى ونحس بحرارة أخرى يحدثها الفاعل المختار ، أي الله ، أو تفيض من العقل الفعال لاستعداد يحصل له من المجاورة أو المماسية ، فكأن ذلك خلق جديد في المحل الثاني ، أما الفلاسفة فيرون أن الأعراض في المحل الثاني تصدر عن العقل الفعال بداعية ضرورة المجاورة أو المماسية .

ويخالف الإيجي الفلاسفة أيضاً في مسألة جواز قيام

العرض بالعرض ، فقد قالوا أن السرعة والبطء عرضان قائمان بالحركة القائمة بالجسم ، أما هو فيرى أن السرعة والبطء ليسا عرضين ثابتين للحركة ، بل هما للسكنات المتخلطة بين الحركات وقلتها وكثرتها ، فحاصل البطء أن الجسم يسكن سكنات كثيرة في زمان قطعه المسافة ، وحاصل السرعة أنه يسكن سكنات قليلة بالقياس إلى سكنات البطء ، ولا شك أنهما بهذين المعنيين من صفات الجسم المتحرك دون (٢) الحركة .

(١) أن الفيلسوف الكبير هنري بركشن H. Bergson يؤيد هذه

النظرية (ازداد بباريز سنة ١٨٥٩) .

(٢) انظر تعليقا على هذه الفكرة في آخر الفصل .

وأخيراً ينتقل الإيجي إلى البحث في فكرة الاشعري المتعلقة
بتجدد الاعراض :

إن العرض لا يبقى زمانين ، فالاعراض جملتها غير باقية
(عند الاشاعرة) بل هي على التقضى والتجدد (ينقض واحد
منها ويتجدد آخر مثله) وقد خصص الله كل واحد منها
بزمان مخصوص .

ووافق على هذا الرأي النظام ، وقال الفلاسفة وجمهور
المعتزلة ببقاء الاعراض مستثنين منها الازمنة والحركات والاصوات .
أما الجبائي وابنه وأبو الهذيل فيذهبون الى بقاء الألوان
والطعوم والروائح دون العلوم والإرادات والاصوات وأنواع
الكلام ، وللمعتزلة في بقاء الحركة والسكون خلاف .

*

* *

إن الميل الى الفلسفة (اللاهوتية) ودراسة هذا العلم
المعقد المستدق بقيا في الاسلام الى أيامنا ، وقد نموا نموًا محسوسا
عند الاتراك على الخصوص .

ونشير هنا إلى مصنف عن حرية (١) الارادة وعلم الكلام

(١) Libre arbitre وترجمها بعضهم بمبدأ الاختيار .

وهو (مفتاح السعادة بقلم محمد زياد الدين أفندي، طبع بالمطبعة
العثمانية بامسطنبول ١٣٠٩ هـ) ألف هذا الكتاب أيام عبد الحميد،
وهو دراسة لا تقل علماً وبحشاً ودقة عن مصنفات التفتازاني
والجرجاني والايحيى.



تعليقان

= على هامش كتاب المواقف =

(١) يقول الإيجي إن المقولات تسع (١)، ويرى آخرون وهم
كثيرون أنها عشر، ونظمها بعضهم في قولهم:
« عدد المقولات في عشر سأنظمها

في بيت شعر علا في رتبة تعلا
فالجوهر، الكم، كيف، والمضاف، متى،
أين، ووضع، له، إن ينفعل، فعلا »
ونظم أمثلتها آخر في قولهم:
« زيد، الطويل، الأزرع، ابن مالك، ❀

في بيتهم، بالأفمس، كان متحكي،
بيده سيف، لواله، فالتوى ❀

فهذه عشر المقولات حوى
ويظهر أنهم يجعلون المقولات تسعاً لأنهم يدخلون الانفعال

في الفعل ، فمثلا إذا قلت :

سخنت الماء فسخن

فهناك فعل وانفعال متلازمان ، وكذلك إذا قلت :

ضرب الامتاذ التلميذ (١) .

فمنهنا أنه حصل من الاستاذ ضرب (فعل) وانضراب على

التلميذ (أي انفعال) بل وربما عقب الانفعال تأثيره .

لكن لي على هذا ملاحظة :

يمكن ان يحصل الفعل من الفاعل (الضرب من الاستاذ)

دون ان تصادف الضربة الهدف ، فيكون على هذا فعل بلا انفعال

(ولنفرق بين التأثير والانفعال ، فالاول يرجع إلى علم النفس

والثاني فيزيولوجي ، وهو الذي يمد من المقولات) .

ففي هذه الحالة انفصل الفعل عن الانفعال (الظاهري اعني حصول

الضرب على التلميذ ، اما الانفعال الداخلي اي خوف التلميذ

وتأثره فلا يمد حصوله ، بيد انه لا يهمننا لانه يرجع إلى

علم النفس) .

«١» معنرة خالصة إلى إدارة العلوم والمعارف إذ ممنوع عن الاستاذ

ان يضرب التلاميذ .

لأبي نصر الفارابي ، المعالم الثاني ، كلام في هذا الموضوع
أقطفه من رسالت تسمى : رسالت في مسائل فلسفية والاجوبتها
عنها (مطبوعة ضمن رسائل اخرى له تحت اسم : مجموعة فلسفة
أبي نصر الفارابي ، مطبعة السعادة بمصر عام ١٣٢٥ هـ) .

السؤال ١٨ ص ٩٨ :

وسئل من مقولتي يفعل وينفعل ، قال السائل إذا لم يمكن
ان يوجد احدهما الا مع الآخر مثلاً انه لا يمكننا ان نتصور يفعل
الاعم ينفعل ، وايضاً لا نتصور ينفعل الا مع يفعل ، فهل هما من
باب المضاف ام لا .. فقال لا لأنه ليس كل شيء يوجد الا مع
شيء آخر فهما من باب المضاف لانا لا نجد التنفس الا مع الئنة ،
ولا النهار الا مع طلوع الشمس ، ولا العرض بالجملة الا مع الجوهر ،
ولا الجوهر الا مع العرض ، ولا الكلام الا مع اللسان ، وليس شيء
من ذلك من باب المضاف ، لكنهما داخلان في باب اللزوم ، واللزوم
منه ما يكون عرضياً ومنه ما يكون ذاتياً ، فالذاتي مثل وجود النهار
مع طلوع الشمس ، والعرضي مثل مجيء عمر عند ذهاب زيد ، ومنه
ايضاً ما هو تام اللزوم ومنه ما هو ناقص اللزوم ، والتام هو ان
يوجد الشيء بوجود شيء آخر ، وذلك الشيء الآخر يوجد ايضاً

بوجود الشيء الاول حتى يتكافئاً في الوجود مثل الاب، والابن
والضعف والنصف والناقص، والازوم هو أن يوجد شيء بوجود
شيء آخر، وليس اذا وجد ذلك الشيء الآخر وجد الشيء الاول،
وذلك مثل الواحد والاثنين، فانه ما وجد الاثنان الا وجد الواحد
وليس اذا وجد الواحد وجد الاثنان لا محالة.

ثم انظر السؤال ١٩ ص ٩٨ - ٩٩ :

سئل عن هذين الجنسيتين، أعني يفعل وينفعل، هل هما
يتكافئان في لزوم الوجود حتى إذا وجد أحدهما أيهما اتفق
وجد الآخر.... فقال: لا، لانا كثيراً ما نجد يفعل ولا يكون
هناك انفعال وذلك حين لا يكون القابل منها قابلاً لقبول الفعل
وأما متى وجد ينفعل فلا بد من أن يوجد يفعل.

فقال السائل: إذا كان معنى يفعل هو أن يؤثر، ومعنى ينفعل
هو أن يتأثر، فلم لم يجعلهما الحكيم تحت مقولة، لكنهما مما جعل
جنسيتين عالمين بسيطين؟.. فقال ليس كل الاجناس العشرة بسيطة
عند قياس بعضها ببعض، وإنما هي بسيطة عند قياسها إلى ما
دونها، فأما البسيطة المحضة من هذه العشرة فهي أربعة: الجوهر،
والكم، والكيف، والوضع. فأما يفعل، وينفعل فهما مما يجدان

بين الجوهر والكيف، ومتى واين يحدثان بين الجوهر والكم،
وله يحدث بين الجوهر والجوهر المطبق به بكلمة او ببعضها،
والمضاف يحدث بين كل مقولتين من العشرة وبين كل نوعين
من مقولتي من المقولات العشر، فهو لذلك داخل من جهة او
جهات في المقولات، ولا يقول كذلك لانه حينئذ يظهر انه نوع من
انواع بعضها، او كليهما، بل يقول ان المضاف يوجد في جميع الاجناس.



(٢) اني على راي الايجي في كون السرعة (١) والبطء من
صفات المتحرك دون الحركة، لكن ألاحظ ان من نفس المثال
الذي ضرب لنا نستنتج ان العرض يقوم بالعرض :
يثبت ان السرعة والبطء يتعلقان بالسكنات المتخللة بين
الحركات وقتتها وكثرتها.

اذن فالكثرة والقلة والبطء والسرعة أعراض بالنسبة
للحركات والسكنات .

ومن جهة اخرى فهاته الحركات وهاته السكنات أعراض
بالنسبة للجسم، وذلك ان الحركات إيجاب والسكنات سلب
تخللها حالة ثالثة وهي حين يكون الجسم هامداً .

على أنه يمكننا أن نعتبر السكنات أجزاء تلتف فيما بينها
فيتكوّن عنها السكون (حينما تصل إلى آخر حد من الكبر) ، أو تقل
كثيراً (إلى أن تصل إلى آخر حد من الصغر) فينشأ عنها
اللاسكون أي أكبر حركة يمكن أن تصدر عن الجسم .
مثال ذلك :

هذه سيارة تريد السفر من مكان يسمى (أ) إلى آخر
يسمى (هـ) ، ونعرف أن رقمها القياسي في السرعة هو ١٢٠ كيلو
متر في الساعة .



بين المحطتين (أ) و (ب) كانت تخطو ١٢٠ كيلو متر في
الساعة (هنا تقل السكنات حتى تصل إلى أكبر حد من القليلة
ممكّن).

ثم أخذت السيارة تقطع المسافة بين (ب) و (ج) متسارعة
عقبته بثلاثين كيلومتر في الساعة فحسب (وفي نيت السائق أن
يقف بالمحطة ج ربع ساعة) ، فالسكنات طبعاً ستكثر حتى
تكون أكبر ما يكون من الكثرة ، حتى إذا وصلت السيارة إلى
المحطة (ج) ووقفت انعدمت السكنات .
(انظر فيما بعد فصلا : اللانهاية) .

القسم

الثالث

حجة الاسلام

ابو حامد الغزالي

نظرة قصيرة

في حياته

ولد الإمام حجة الاسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي بمدينة طوس (١) عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) وتعلم في صبالامبادئي الفقه، ثم رحل الى نيسابور (٢) حيث تابع دروس إمام الحرمين (٣).

(١) طوس مدينة بخراسان تشتمل على بلدين يقال لاحدهما طابران (وهي التي دفن بها الغزالي) والاخرى نوقان. وبهنا أكثر من ألف قرية. فتحت أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبهنا قبر هارون الرشيد (٢) نيسابور: مدينة عظيمة فتحت أيام عثمان رضي الله عنه في سنة ٣١ صلحا.

وفي نيسابور تلقى الغزالي عن إمام الحرمين الفقه والمنطق والاصول حتى برع أنمادة وزملاؤه، وتولى في أخريات أيامه التدريس بالمدرسة النظامية في نيسابور مدة يسيرة رجع بعدها الى طوس.

(٣) هو عبد الملك بن عبد الله الجويني، ولد بنيسابور سنة ٤١٩.

كان إماماً مبرزاً في علم الكلام والاصول غزير الإطلاع في العلوم الاسلامية والعربية على العموم، ويعد بحق أكبر شخصية دينية في أيامه. (انظر ج ٣ من طبقات الشافعية الكبرى مثلاً).

فبرع منذ الايام الاولى وامتاز على التلاميذ الآخرين .
ثم ودع نيسابور وقصد قصر الوزير نظام الملك (١) فمقبله
بقلب رحب ، وأنزله منزلة تلائم رتبته العلمية وبراعته في المناظرة ،
وكان منزل هذا الوزير مجمعا للعلماء ومحج الأئمة والمشاهير ،
فوجد الغزالي في جواره فرصا للمجادلة مع العلماء ، فطار صيته ،

(١) نظام الملك : ازداد سنة « ٤٠٨ هـ » وتوفي عام ٤٨٥ .
هو الحسن بن علي الطوسي ، اصله من طوس ، قرأ العربية وسمع
الكثير من الحديث ، ثم اتصل بالسلطان ألب أرسلان فاستوزره وبقى
في هذا المنصب عشر سنين .
وبعد وفاة السلطان خلفه ابنه ملكشاه وبقى نظام الملك في الوزارة
يتمتع بسلطة كبيرة حتى قتل سنة ٤٨٥ هـ بعد أن قضى مع
السلطنة في الوزارة تسعاً وعشرين سنة [من ٤٥٦ الى ٤٨٥]
ولقد بنى مدارس علمية كبيرة بنيسابور وبغداد واصبهان والبصرة
والموصل ، ورفع من شأن العلماء « فهو بحق مبعين Mécène هذه
الامة في عصره » . وتخرج من مدارسه كثير من العلماء والادباء .
واليه تنسب المدرسة النظامية الشهيرة التي بناها ببغداد سنة ٤٥٧ هـ
وأوقف عليها ما يكفي لمدرسيها ولمنح الطلبة (Les Bourses) المستعملة
اليوم ، ولنفقات مساكنها وحماماتها .
وقد خصص م طالس Talas كتابا عن المدرسة النظامية وتاريخها .

وانتشر ذكره ، ثم أرسله الوزير الى بغداد ليقوم (١) بالتدريس بالمدرسة النظامية ، فاستقبل هناك استقبالا حسنا وأصبح فيها أستاذاً ومناظراً ، ثم صار إماماً ببغداد بعد أن كان إماماً بخراسان (٢) ثم انقلبت الأحوال (وأصيب الغزالي بأزمة روحية يشير اليها في كتابه المنقذ من الضلال) .

غادر أبو حامد بغداد وودع التشريفات ، وانكب على الزهد وتصنيف المؤلفات القيمة كإحياء علوم الدين .

ثم ذهب لمبيت المقدس لينغمر في حياة النسك ، وبعد أن تدرب وحصل على المقصود رجع الى مسقط رأسه حيث اشتغل

(١) يقال ان من تلامذته أبا بكر بن العربي ومحمد ابن تومرت مؤسس الدولة الموحدية الشهيرة . تلقى على ابي حامد المذهب الاشعري الذي صار بعد ذلك مذهباً رسمياً بالمغرب .

أما العلامة كولد زيهري فيثبت ان ابن تومرت لم يتصل بالغزالي « انظر مقدمة الالمانية [الترجمة الفرنسية لاتي اعتنى بهام ديمويين] لكتاب اعجب العجب » المطبوع في الجزائر « في عقائد ابن تومرت

(٢) وقد كان بالاسكندرية فأجمع العزم على زيارة المغرب ليقدم على يوسف ابن تاشفين المراتبي الامبراطور المغربي العظيم ، لكنه باغته نعي ملكها الهمام فعاد الى طوس وانقطع الى حياة الفكر والزهد .

وهذا يذكرنا بمرض الاستاذ الامام محمد عبده في طريقه الى المغرب ، فلم يسعد وطننا بزيارة هذين الامامين العظيمين .

بالتمرن على التقوى والزهد يقود النساك ويدعو الى الله متأهباً
لدار الآخرة.

توفى يوم الاثنين ١٤ جمدي الاولى من سنة ٥٠٥ (١١١١م).

*

قد ارتأيت تلخيص حياته لأن الذي يهمنا هي أفكار (م كارا)
في الامام لاحياته التي توجد في مختلف الكتب قديماً وحديثاً.



اسلوبه

للفز الى أسلوب جزل واضح سهل لين ، فلا يصعب فهم آرائه بسهولة طريقته في الكتابة ، إذ يستعين بصور مجازية ، بيد أنه لا يغفل في وقت ما الناحية العلمية ، ياخذ معه القاريء ويذهب به بعيداً ، ولكنه لا يتعبه ، وفكره لا فكر متزن يتخذ في كل شيء حداً ، فهو لا يكثر حتى يضجر القاريء ، ويتسم الموضوع أقساماً ، ثم يحزى كل قسم إلى أجزاء في دقة وإتقان وفن وبدون أدنى تكلف ، ولم يكن يفرط في التدقيق لا في الفقه ولا في علم

النفس ، وحتى في التصوف نفسه فإنما لم يتجاوز الحدود .
ويمكننا أن نقارنه ببعض الآباء اليونانيين ، وبالأخص بالقدّيس (جان كريزوستون) (١) فهما يتفقان في ملامسة

(١) St. Jean Chrysostome : (٤٠٧ - ٣٤٧ م) ازداد بأنطاكية

وكان ابا بكنيسة اسطنبول

ولقد اشتهر ببراعة نادرة في البلاغة حتى لقب بالفم (الذهبي) وكان لهيجته الشديدة تأثير عميق على احوال البلاط والكنيسة ، فقوم سيرها ، ثم قضى آخر ايامه بالمنفى لانه كان يندقد سيرة الامبراطورة (اودوكسى)
Eudoxie وقد ترك مواظ رائعة .

الأملوب الجذاب والوضوح على أننا نلاحظ ان الغزالي اكثر
من صاحبه معرفة بالقواعد العلمية وقل منه اشتغالا بالحياة السياسية»

انتهى كلام (م. كارا).

وأرى من المفيد ان آتى هنا بفقرات من كلام الغزالي حتى
يتسنى لنا ان نكون فكرة حية عن اسلوبه نؤيد بذلك
ماقاله عنه (م كارا).

يقول الغزالي عن آفات اللسان :

«.... ويدلك على فضل لزوم الصمت امر ، وهو ان

الكلام أربعة أقسام :

(أ) قسم ضرر محض ،

(ب) وقسم هو نفع محض ،

(ج) وقسم فيه ضرر ،

(د) وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة .

أما الذي هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه ، وكذلك

مافيه ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر .

وأما مالا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول ، والاشتغال به

تضييع زمان ، وهو عين الخسران .

فلم يبق الا القسم الرابع ، وهذا الربع فيه خطر ، إذ يمتزج
بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس
وفضول الكلام امتزاجاً يخفى دركه ، فيكون الإنسان به مخاطراً
(من إحياء علوم الدين) .

ويقول في مقدمة أحد كتبه ، فيصل التفرقة بين الإسلام
والزندقة ويعرض بالمقلدين ويذم الحسدة : « رأيتك ايها الآخ
المشفق ، والصديق المتعصب موغر الصدر منقسم الفكر لما قرع
سمعك من طعن من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة في أسرار
معاملات الدين ، وزعمهم ان فيها ما يخالف مذهب الأئصحاب
المتقدمين ، والمشايخ المتكلمين ، وأن العدول عن مذهب الأشعري
واو في قيد شبر كفر ، ومباينته واو في شيء نزر ضلال وخسر
فهوّن ايها الآخ المشفق المتعصب على نفسك ، لا تضيق به صدرك ،
واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً ، واستحقر من
لا يحسد ولا يقذف ، واستصغر من بالكفر أو الضلال لا يعرف ،
فأني داع اكمل واعقل من سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه
وسلم وقد قالوا إنه مجنون من المجانين ؟ وأي كلام اجل واصدق

من كلام رب العالمين وقد قالوا اننا اساطير الاولين ؟ واياك
ان تشتغل بخصامهم وتطمع في افحامهم ، فتطمع في غير مطمع ،
وتصوت في غير مسمع ، اما سمعت ما قيل :

« كل العداوة قد ترجى سلامتها ❀ الاعداء آمن عاداك عن حسد » ؟
ولو كان فيها مطمع لا حد من الناس ، لما تلى على ارجاسهم
رتبته وايات اليأس ، اما سمعت قولها تعالى « وان كان كبر عليك
اعراضهم فبان استطعت ان تبغى نفقاً في الارض او سلباً في
السماء فتأتيهم بآية » ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن
من الجاهلين . »



كتاب احياء علوم الدين

ان اشهر مؤلفات حجة الاسلام كتابه احياء علوم الدين (طبع
بالقاهرة سنة ١٣١٢ بالمطبعة اليمنية في سفرين ضخمين). (١)

ان هذا المصنف العالي الذي اخذ الغرب يتعرف به جيداً
لاوضح تعبير في الاسلام واتمه لعلم اللاهوت الموافق للسنة ،
فهو يعتمد على الوحي والنقل وعلى نفس عاطفة التقوى لا على
قواعد علم الكلام ، وهو خطاب موجه لجميع المومنين .

ولقد احسن المؤلف تبويب الكتاب حيث قسمه الى اربعة
اقسام يحتوي كل منها على عشرة كتب او مصنفات خاصة ،

(١) وطبع قبل ذلك طبعة حجرية بفاس في شعبان عام
(١٣٠١ هـ) في ايام امير المومنين مولاي الحسن على نفقة الحكومة
المغربية في ١٣ مجلدا كبيرا [مع شرح الشيخ سيدي محمد الزبيدي
المشهور بالمرتضى] وهي طبعة راقية من حيث الخط والورق والتصحيح
وبهذا العمل المبرور كف المولى الحسن عما فعل المغاربة قبل ذلك
بكتب الغزالي....

وطبع بعد ذلك في عشر مجلدات ببولاق مصر سنة ١٨٩٣
فيظهر من هذا ان الطبعة الاولى هي طبعة فاس . ووقف السلطان
٣٠٠ نسخة منها على خزائن القرويين بيد انه لم يبق اليوم الا ٨٠ نسخة [١٩]

فالقسم الاول يتكلم على العبادات المهمة :

الوضوء، والغسل، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وتلاوة
القرآن وتفسيره، وترتيب الاوراد في الاوقات .

وبالمقدمة مقالتان في العلم وفي امس الايمان . .

وأما الرابع الثاني فموضوعه العادات من آداب الاكل ،

والزواج ، والمعاملات التجارية ، والاسفار ، كما يحتوي أيضاً على
بحوث في الصداقة، والاخوة، والعزلة، وحياة الانزواء، وفي الحلال
والحرام ، وفي سماع الموسيقى .

وأما الرابعان الآخران فأطول من الاولين ، ويختصان

بالتصوف وبآداب التصوف ، أحدهما يبحث في الناحية السلبية
من هذه الآداب ، والآخر في الناحية الايجابية أو في المهلكات
والمنجيات .

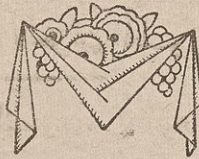
فالناحية السلبية تدور حول تهذيب الطباع ، وزواج

الشهوات الذاتية، وآفات اللسان، وآراء ضد الغضب، والحق،
والحسد ، وحب ، المال وذم الكبر ، وحب الفخر والسمعة .

وأما بحوث القسم الرابع فتحمل عناوين هي أسماء الحالات

صوفية (١) كالنوبة، والصبر، والاعتراف، والامل، والفقر، والزهد،
والورع، والحب، والشهوة، والاتلاف، والقناعة، والفناء في ذات الله،
والاستسلام له .

ثم إن المواضيع الاخرى تتكلم عن الموت وتذكرها والبعث
واحوال الآخرة .



« ١ » أرى أن هذه أخلاق إنسانية على العموم وإسلامية على الخصوص،
فالآيات القرآنية والآحاديث النبوية المتعلقة بها تفوق الحصر ، خلافا
للمسيوکارا الذي يراها حالات صوفية ، وإن الديانة المسيحية الحقة
لتمتاز بنفس هذه الاخلاق .

كتاب كيمياء السعادة

يظهر أنه لا توجد أي نسخة عربية لهذا الكتاب، ويكتفى مترجمو الغزالي بذكر اسمه في لائحة مؤلفاته، فلم يعرفوا به تعريفاً كافياً، بل كل ما يقول بعضهم عنه انه مصنف الفقه حجة الاسلام باللغة الفارسية (١)

وجاء في كتاب (أبو حامد الغزالي) الاستاذ محمد رضا « كيمياء السعادة والعلوم » كتاب كبير بالفارسية، يقال انه ترجم فيها (أي الغزالي) كتاب الاحياء وهناك كتاب آخر صغير باللغة العربية سماه كذلك، وطبع هذا الكتاب بمصر، وطبع أيضاً بمدينة (لاكنو) و (بيومباي) والقسطنطينية .

وقد عثرت على اسمه بالانجليزية، لكنها لا تحتوي على لفظة

والعلوم التي رأينا عند رضا . The Alchemy of Happiness

« كيمياء السعادة » . . . (؟) ...

ولم يزد صاحب معجم المطبوعات العربية والمعرية في

تعريف الكتاب على هذه العبارة « كيمياء السعادة رسالة ضمن
مجموعته رقم ٩٤ » .

فأحسن دراسة للموضوع عثرت عليها هي التي يقدم لنا
المسيو (كارادوفو) هنا وهما تعريفها :

لقد ترجم الغزالي نفسه كتابه « إحياء علوم الدين » باختصار
إلى اللغة الفارسية تحت عنوان : « كيمياء السعادة » ، والتبويب
في هذا الترجمة كما في الاصل ، منظم متقن ، لكن الاسلوبين مختلفان
شيئاً ما ، فالانشاء في النسخة الفارسية اسهل منه في النص العربي
لكن أقل تعمقاً من الناحية العلمية ، وفيه حذف الكثير من
الاحاديث .

ولقد اشتهرت بالشرق هذه الترجمة ، فنقل عنها الاثراك
نبذاً مختلفة ، فهنا فقرات من القسم الاول (من نسخة خطية في
ملكنا) ولنا لاحظ بأي بساطة يستطيع الغزالي أن يعرض علينا
أفكاراً فلسفية (من مقدمة كيمياء السعادة) يريد الامام أن يفسر
تلك العقيدة المعروفة كثيراً في التصوف الاسلامي ، والتي تذكر
بالجملة اليونانية : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » والمقدمة
سهلة سامية ، وأول الكتاب في صفات المسلمين ، وهي أربع

صفات ، أولها معرفة الانسان نفسه. وهذه المعرفة هي مفتاح معرفة الله تعالى، ولهذا قيل : من يعرف نفسه فقد عرف ربه (١) ، وجاء في القرآن : «سريهم أياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم انه الحق» (٢) . ففي الغالب لا شيء أقرب إليك منك ، فإذا كنت لا تعرف نفسك بنفسك فكيف يمكنك أن تعرف شيئاً آخر غيرك ؟ فإن قلت : إني اعرفني معرفة كافية ، كنت في الضلالة ومثل هذه المعرفة ليست هي مفتاح معرفة الاله (قارن بين هذا وبين اعترافات القديس اكيستان (٣) ، الفصل الخامس من الباب

(١) «من عرف نفسه فقد عرف ربه» قيل إنه حديث ، والسيوطي فصل عنوانه : القول الاشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه ، يوجد بالجزء الثاني ص ٤٠١ من كتابه الحاوي للفتاوي . ويستنتج من كلام السيوطي ان هذا الحديث موضوع ، والنووي في فتاويه يقول إنه ليس بثابت .

(٢) قد وقع للمؤلف غلط في هذه الآية الشريفة في النص الفرنسي فأوردتها هنا وفق ما في المصحف [الحزب ٤٩ سورة حم ، الآية ٥٣] (٣) St Augustin اصله تونسي [٤٣٠ - ٣٥٤ م] كان ابا بكنيسة باجة بافريقية الرومانية ، قضى شبابه في اللهو واللعب ، ثم جذبه حياة الزهد والتشبه بالدين فانكب عليها حتي اضحى اشهر اباء الكنيسة اللاتينية .

وله مؤلفات منها اعترافاته ، وهي تاريخ بليغ لشبابه المملوم بالطيش والاعطاء .

(الحامس).

إنك كالحیوان لا تعرف عن نفسك في الظاهر إلا الرأس والوجه والرجلين والظهر والاذنين ، وفي ماعدا هذا فإنك لا تعرف عنك شيئاً ، وتعرف في الباطن مقدار ما عرفت في الخارج : إذا جمت أكلت الخبز ، وإذا غضبت تألبت على إنسان ، وإذا انتصرت عليك الغريزة الشهوانية ارتيمت على الاتصال الجسدي ؛ وكل الحيوانات تفعل مثل هذا ، فيلزمك إذن أن تبحث عن كنهك حتى تصل إلى معرفة من أنت ، ومن أين أتيت ، وإلى أين تذهب ، ولماذا أتيت إلى هذا المكان ، وما الغاية من إيجادك وما سعادتك ، وما مشقاوتك ، وفي أي شيء يوجدان : ثم إن البعض من هذه الأجهزة المجتمعة فيك توجد في الأنعام ، والبعض في الحيوانات الضارية ، وأخرى عند الالبسة ، وأخرى عند الملائكة ، فأين هي خصوصياتك من بينها ؟ أين هي التي تدخل في مادة جوهرك وما هو الذي منها أجنبي عنها أو مستعار ؟ فإذا كنت لا تعرف هذا فإنك عاجز عن البحث عن هنائك .

وفي محل آخر من هذا الكتاب (الترجمة التركية للجزء الأول سنة ١٢٩٣ هـ ، الصفحة ٥٦) يحاول الغزالي أن يشرح

كيف أن فهم الأشياء يختلف باختلاف الحالات النفسية، وكيف كان الفرق كبيراً بين معرفة الإنسان ومعرفة الله؛ ويضرب الأمثال، قال: إن مثل هؤلاء الاشقياء من المنجمين والاطباء الذين لا يعرفون إلا ما وإنما يعتمدون على النجوم والاشياء الطبيعية، كمثال النملة التي رأت القلم يمشى فوق الورق فظنت أن الكتابة منشؤها القلم، ففي هذه الدرجة المنحطة يوجد العالم الطبيعي الذي يعزو كل شيء الى الحرارة والبرودة، وإلى الماء والارض، أما النملة الاخرى التي تفحص الاشياء بإمعان، فتتحقق بأن حركة القلم لا تأتي من نفس القلم، وتفرض أن القلم يمشى بإرادة الاصبع وتقول للاولى: «إنك تظنين أن الحروف تصدر عن القلم، والحقيقة ليست كذلك، إنها تأتي من الأصبع، لأن القلم تحت سلطة الاصبع (١)».

فهذه هي درجة المنجمين الذين ينسبون سير الاشياء إلى سير النجوم، فهم لا يعرفون أنهم في الضلال، إذ الملائكة هم المشرفون على سير النجوم، ثم ان الملائكة أنفسهم لا يتحركون الا بإذن الله.

«١» يوجد مثال النملتين بكتاب الاربعين، وهو من مؤلفات

إن الطبيعي الذي ينسب إدارة الكائنات إلى الطبيعة يقول
حقاً من بعض الوجوه ، فالولا علم الطبيعيات لما كان عام الطب
ولما سمح (القانون) الشرع للأطباء بأن يعالجوا الأمراض ،
لكنه من ناحية أخرى ضال ، فهو يعيش كحمار أعرج لا يعرف
أن الطبيعة تحت تصرف الإله ، فيحتتم عليهم أن يقف بالباب
كأخس العبيد ، في المكان الذي تخلع فيه النعال .

وأما المنجم فهو من جهة يرى أن الشمس كوكب يعطى
للعالم الحرارة والضياء ، فالولا الشمس لما كان ليل ولما كان نهار ،
ولما نمت الحبوب والنباتات ، ولولا القمر لما بقي معنى لتحديد
أوقات الصلاة والصيام والزكاة والحج ، لأننا لا يمكننا التفريق
بين الأسابيع والشهور والأعوام .

والقمر هو الذي يكسب الزهور والثمار مالها من عطر
وألوان خلابة ، فالشمس حارة وجافة ، والقمر بارد وندي ،
وأما زحل فبارد جاف ، والزهرة جافة ندية ، ففي كل هذا يمكن
المنجمين أن يكونوا على حق ، لكنهم يخطئون حينما يدخلون
كل شيء تحت هذه الظواهر الكونية المسماة ، دون أن يتفطنوا
إلى أنها في قصارى الأمر تدخل تحت تصرف الإله ، كما تؤيد

ذلك الآية: « والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره (١) ».

ثم يورد الغزالي مثلاً معروفاً يوجد بقصيدة جلال الدين

الرومي الشهيرة:

دخل فيل بلدة عميان فاجتمع السكان حوله، هذا يس
رجله، وذاك الخرطوم، وثالث الازنين، فسألهم أحد: ما الفيل؟
فأجاب الأول: إنه يشبه ساريتا، وادعى آخر: إنه نوع من
الاولوية، وهكذا صار كل يمثله على حسب العضو الذي لمس،
والحقيقة أن كل واحد من العمى قد صدق فيما مثل به بالنسبة
لعضو من الاعضاء، ولكنه يخطئ، إذا أثبت أن كل الفيل كما
زعم، وهكذا لكل من المنجم والطبيب والدهري الحق ان يقول:
إن هذا يؤثر في قيادة الاشياء، لكنه يكذب إذا ادعى ان مجموع
الاشياء يخضع لذلك.

ثم يأتي الغزالي بمثال آخر، فيشبه العالم بقصر (ونلاحظ هنا

١» زعم مكارا ان هذه الآية حديث [الآية ٤٤ سورة الاعراف

الحزب ١٦] فهناك حديث شريف له علاقة بهذا المعنى وربما كان ذلك
سبب الالتباس الذي حصل للمسيو كارا:

قال صلعم «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت
أحد ولا لحياته.» البخاري ومسلم وغيرهما.

ان هذا الطريقة واضحة جداً يفهمها العامة) : بنى ملك قصراً ،
وبالقرب من البيت الخاص به كان آخر خاصاً بالوزير ، ويحيط
بهذا البيت صحن وبناء يحتوي على اثني عشر بيئاً في بروج ، وفي
كل بيت نائب للوزير ينقل أو امره للخارج ، وبياب كل برج
يقيم سبعة من رؤساء الخيالة ، وأربعة من قواد الجنود الرجال
بأيديهم مقاد ، ومهمتهم ان ينفذوا احكام (الباديشالا) (١)
ويصفدون كل من تامر جلالته بتكيله ، فهذا السلطان هو الإله
طبعاً ، واما الوزير الذي في البيت المجاور فيقوم بدور العقل
الفعال او الملائكة المقربين الذين جعل الله بين أيديهم تسيير
العالم ، وأما المساحة التي تحيط بمكان الوزير فهي السماء حيث
توجد أبراج الأفلاك الاثني عشر ، ورؤساء الخيالة السبعة
هي الكواكب السيارة السبعة التي تقوم صباح مساء بباب البروج ،
وأما ضباط المشاة الأربع فيمثلون المواد الأربع : الماء والتراب
والنار والهواء ، والمقاد التي بأيديهم هي الحرارة والبرودة
والرطوبة واليبوسة والخلاصة ان العمل الثانوية التي يسند
اليها الطبيعيون والأطباء والمنجمون أقوالهم كلها حقيقة ، بيد

أن العلة الأولى الخالدة هي وجوب الوصول في النهاية إلى الله ...»

★

★ ★

إلى أي حد يتفق كتاب كيمياء السعادة وكتاب إحياء علوم
الدين؟ هذا سؤال لا نستطيع أن نجيب عنه مادام كتاب كيمياء
السعادة غير موجود لدينا، ثم إن الصفحتين أو الثلاث التي أتى
بها هنا (م كارا) لا تكفي للمقارنة.



على هامش

كتاب كيمياء السعادة

بعد أن نشر الفصل المتقدم في مجلته «الثقافة المغربية»، عثرت على مصنف مطبوع باسم كيمياء السعادة، فارتأيت أن آتي بالفصل كما نشر من قبل دون تغيير، وأن أتبعه هنا بهذا الفصل تكميلاً للفائدة (١).
بين يدينا الآن مصنف صغير طبعته مطبعة السعادة بمصر باعتناء السيد محيي الدين صبري الكردي، يشتمل على كيمياء السعادة وعلى الرسالة اللدنية، والرسالتان معا لأبي حامد الغزالي. يقول الناشر في آخره:

«.... إن حصولى لهذا (٢) الكتاب لم يكن أمراً سهلاً، فقد بذلت الجهود في نسخه من إحدى كتبه خانات الاستانة.»
والمصنف من الحجم الصغير (٥٠ صفحة: ٢٠ في كيمياء السعادة، والباقي في الرسالة اللدنية).

(١) ويرجع الفضل إلى الأخ الأديب سيدي محمد بن عبد الرحمن السعداني وهو الذي أرشدني إلى وجود هذه النسخة وحصل لي عليها. فله شكري.
(٢) انقل ما في النسخة دون تغيير

ولنتصفح هذه النسخة .

يستهل حجة الإسلام بمقدمة عادية في إيضاح معنى
كيمياء ، منه ، (ص ٣) :

« اعلم ان الكيمياء الظاهرية لا تكون في خزائن العوام
وإنما تكون في خزائن الملوك ، فكذلك كيمياء السعادة لا تكون
إلا في خزائن الله سبحانه وتعالى ، ففي السماء جواهر الملائكة ،
وفي الارض قلوب الاولياء العارفين ، فكل من طلب هذا من
غير حضرة النبوة قد أخطأ الطريق ، ويكون عمله كالدينار البهرج
فيظن في نفسه أنه غني وهو مفلس في القيامة كما قال سبحانه
وتعالى : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .

بعد ذلك يأتي فصل عنوانه : (معرفة النفس) يتفق كثيرا
وما وجدنا عند مكارا ، أنقله لتتابع المقارنته ونصل إلى نتيجة
نقتنع بها ، (ص ٤) :

« اعلم أن مفتاح معرفة الله تعالى هو معرفة النفس كما قال
سبحانه وتعالى : « من ربهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين
لهم أنه الحق » ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من عرف
نفسه فقد عرف ربه » وليس شيء أقرب إليك من نفسك ، فإذا

لم تعرف نفسك فكيف تعرف ربك ؟ فإن قلت إني أعرف نفسي ،
 فإنما تعرف الجسم الظاهر الذي هو اليد والرجل والرأس
 والجمجمة ، ولا تعرفها في باطنك من الأمر الذي به إذا غضبت
 طلبت الخصومة ، وإذا اشتهمت طلبت النكاح ، وإذا جمعت
 طلبت الأكل ، وإذا عطشت طلبت الشرب ، والدواب تشاركك
 في هذه الأمور ، فالواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة حتى
 تدري أي شيء أنت ، ومن أين جئت إلى هذا المكان ، ولأي شيء
 خلقت ، وبأي شيء سعادتك وبأي شيء شقاؤك ، وقد جمعت
 في باطنك صفات منها صفات الملائكة ، فالروح حقيقة جوهر ك
 وغيرها غريب منك وعاريت عندك ، فالواجب أن تعرف هذا
 وتعرف أن لكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة ، فإن سعادة
 البهائم في الأكل والشرب والنوم والنكاح ، فإن كنت منهم
 فاجتهد في أعمال الجوف والفرج ، وسعادة السباع في الضرب
 والفتك ، وسعادة الشياطين في المكر والشر والحيل ، فإن كنت
 منهم فاشتغل باشتغالهم ، وسعادة الملائكة في مشاهدة جمال
 الحضرة الربوبية ، وليس للغضب والشهوة إليهم طريق . فإن
 كنت من جوهر الملائكة فاجتهد في معرفة أصلك حتى تعرف

الطريق الى الحضرة الإلهية وتبأغ الى مشاهدة الجلال والجمال،
وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب، وتعلم ان هذه الصفات
لاى شىء ركبت فيك، فما خلقها الله تعالى لتكون اميرها ولكن
خلقها حتى تكون امراك وتسخرها للسفر الذى قدامك،
وتجعل احداها مركبك والاخرى سلاحك حتى تصيد بها
معادتك، وذلك المكان قرار خواص الحضرة الإلهية، وقرار
العوام درجات الجنة، فتحتاج الى معرفة هذه المعانى حتى
تعرف من نفسك شيئاً قليلاً، فكل من لم يعرف هذه المعانى
فنصيبه من القشور، لان الحق يكون عنه محجوباً .

ثم يأتى فصل بلا عنوان مضمنه أن المرء مركب من جسم وروح.
ويفسر فى الفصول الثلاثة التى تلى، معنى النفس أو القلب الذى
يعرفه (بعين الباطن .)، وباختصار فإن الفصول الخمسة (التى
تلى فصل تفسير كيمياء) كلها فى معنى الروح وحقيقتها، وفى
النزعات النفسية وتقسيم النفس، وان الإنسان مركب من قالب
وروح، منها واحد فى معرفة القلب وعسكره، وهو فصل صغير
وظريف انقلبه هنا :

« اعلم انه قيل فى المثل ان النفس كالمدينة، واليدين

والقدمين وجميع الأعضاء ضياعها، والقوة الشهوانية واليها،
والقوة الغضبية شحنتها، والقلب ملكها، والعقل وزيرها،
والملك يديرها حتى تستقر مملكته واحواله، لأن الوالى
وهو الشهوة كذاب فضولى مخطط، وهو الغضب شرير قتال
خراب، فان تركهم الملك على ما هم عليه هلكت المدينة وخربت،
يجب ان يشاور الملك الوزير ويجعل الوالى والشحنة تحت يد
الوزير، فإذا فعل ذلك استقرت احوال المملكة وتعمرت
المدينة، وكذلك القلب يشاور العقل ويجعل الشهوة والغضب
تحت حكمه حتى تستقر احوال النفس ويتصل الى سبب السعادة
من معرفة الحضرة الإلهية، ولو جعل القلب تحت يد الغضب
والشهوة هلكت نفسه وكان قلبه شقيا فى الآخرة ١٠ (ص ٩).
ثم بعد هذا نجد ثلاثة فصول حول الاخلاق، وأربعة
فى عجائب القلب، وآخر فى الفطرة الانسانية.

فلنقف قليلا فى فصل: ان الشهوة والغضب خادمان للنفس،
جاذبان يحفظان أمر الطعام والشراب لئلا يهلك الحيوان.

ومما يرد فى هذا الفصل:

« وقوة الخيال فى مقدم الدماغ كالنقيب يجمع عند »

أخبار الجواسيس .

وقوة الحفظ في مقدم الدماغ مثل صاحب الخريطة يجمع

الرقاع من يد النقيب ويحفظها الى أن يعرضها على العقل .

أين مقر المخيلة (قوة الخيال أو ملكة الخيال) ؟

وأين مقر الحافظة (قوة الحفظ أو ملكة الحفظ) ؟

هذان سؤالان من أسئلة يهتم بها العلماء منذ (Alcméon

الكميون) اليوناني الذي كان طبيباً وفيلسوفاً في القرن الخامس

قبل الميلاد، و(أبقراط Hippocrate هيبو كراط) أشهر أطباء

التاريخ القديم (ازداد باليونان سنة ٤٦٠ قبل الميلاد)، فمنذ

عصر هذين الرجلين الى يومنا حيث العلم الحديث ما يزال يعتنى

بهذه الدراسة أيما اعتناء (انظر العدد الاول سنة ١٩٣٦ من مجلة أكبر

الحوادث الطبية Les grands évènements médicaux)

فهو عدد خاص بتاريخ دراسات المراكز التي في الدماغ .

كانت الفلسفة القديمة تجعل مقر العقل والمسلكات المختلفة

في القلب (وكان على هذا الرأي كثير من مفكري الاسلام) .

ويرى أرسطو أن في القلب مركز الذاكرة وإدراك

المحسوسات؛ وجعل آخرون الروح في الدم؛ وادعى ديكارت

Descartes أن الروح متصلة بجميع الجسد ، بيد انها توجه تأثيرها بالخصوص على الغدة الصنوبرية (١) .

وزعم (فلورانس Flourens العالم الفرنسي ١٨٦٧ - ١٧٩٤) أن الدماغ قطعة لا تتجزأ : إذا تأملت تأملت مجموع الدماغ ، وتحس وتنخيل كذلك بالدماغ كله .

اما (شكول Gall الألماني ١٨٠٨) فلا يقول بنظرية (وحدة الدماغ) بل يرى علاقة ونسبة بين العمليات الفكرية وتقل ما بداخل الدماغ (المخ والمخيخ ...) ، ويقول بوجود مراكز مختلفة ، وأن هيئة الجمجمة هي الصورة الظاهرة للدماغ ، بحيث يمكننا أن نحكم على طبع وعريكته المرء واستعداداته بمجرد فحص الصورة الخارجية للجمجمة (١) .

على أنها لا يعمل اليوم بنظرية فلورانس ولا بنظرية شكول هذا بعض المراحل التي مرت بها مسألة دراسة الملكات الفكرية ، وبعض المحطات المهمة التي وقف بها الباحثون في

(١) لوزة في وسط الرأس La glande pinéale .

(٢) هذا ما يسمى بـ : Phrénologie أو Cranioscopie اختار للاصطلاح عليه لفظة الرأسولوجية (فالدماغلوجية أقرب ولكنها أثقل) .

تجوالهم بالذماغ.

وقد رمت أبحاث أصحاب علم النفس، بالتعاون مع الاختصاصيين في هذا الناحية من الأطباء، الى نتائج لما تتم، مستعينين بآلات خصوصية في معامل خاصة (١).

ومن الذين درسوا مسائل الحافظة في عصرنا وبحثوا عن مقرها (مودسلى Maudsley) و(واند Wundt) و(ريبو Ribot) القائلين بأن صيانة الأشياء المرئية أو المسموعة الخ... وحفظها يكون في نفس مراكز الإحساس بها، أو في نفس مراكز إدراكها، ويرى (بان Bain) ما يقارب نظريتهم.

أما الدكتور (سولبي Sollier) في كتابه (مشكلة الذاكرة Problème de la mémoire) فيجعل الحافظة في المراكز التي في مقدم الدماغ.

فلنقارن بين هذين النظريتين وبين ما صرح به أبو حامد منذ ما يناهز تسعة قرون!

(١) وأول معمل لهذه التجارب النفسية اسمه (واند Wundt) سنة ١٨٧٩ ب (ليبيك Leipzig). وبعد هذا التأسيس خطوة خالدة في تاريخ علم النفس.

وفيما يخص مقر الخيلة فإن (فليسج Flehsig) يراه
في نواحي الجبين ومقدم الدماغ (وعبارة الغزالي باللفظ هي :
« وقوة الخيال في مقدمة الدماغ ») .

وأما الأستاذ (بلاير Paulin Malaper) في كتابه
(دروس الفلسفة ص ٢٥٢ من ج ١) فلا يجزم إلا بشيء واحد
هو أن مصدر الخيال من الدماغ .

ونجد كذلك عند المعلم الثاني محمد بن محمد الفارابي في كتابه
فصوص الحكم (مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٥) محاولة من
هذا القبيل، ص ١٥٢ :

« (فص) إن وراء المشاعر الظاهرة شركا وحباثل الاصطباد
ما يقنصه الحس من الصور ، ومن ذلك قوة تسمى مصورة وقد
رتبت في مقدم الدماغ ، وهي التي تستثبت صور المحسوسات
بعد زوالها عن مسامحة الحواس أو ملاقاتها ، فتزول عن الحس
ويبقى فيها قوة تسمى وهما ، وهي التي تدرك من المحسوس
ما لا يحس ، مثل القوة التي في الشاة اذا تشبعت بصورة الذئب في حامة
الشاة تشبعت عداوتها ورداءتها ، فيها ، اذ كانت الحاسة لا تدرك
ذلك ، وقوة تسمى حافظه وهي خزانة ما يدرك الوهم ، كما أن

القوة المصورة خزانة ما يدركه الحس ، وقوة تسمى مفكرة وهي التي تتسلط على الودائع في خزانتى المصورة والحافظة فيعطل بعضها ببعض ويفصل بعضها عن بعض ، وإنما تسمى مفكرة اذا استعملها روح الإنسان والعقل ، فإن استعملها الوهم سميت متخيلة وجاء في كتاب العمران البشري لعبد الرحمان بن خلدون فصل كذلك في (قوى النفس ومراكزها من الدماغ) (١) .

فما نحن نرى أن البعض من مفكري الاسلام قد اهتموا منذ قرون بما تشغل به اليوم البحوث والتجارب العلمية بأوروبا والعالم الجديد ، والله وحده يعلم متى منصل الى نتائج تامة في هذا الميدان الغامض ، يقول هيجو : « تتضارب زوابع قمت كل دماغ . » ويقول شكسبير Shakespeare في رواية « هاميليط Hamelet » : « انه ليكبر على فلسفتنا ان تدرك ما في الدماغ . »

إن اكبر السياحات (او الدرامات) في بعض مناطق الدماغ البشري التي وصلت إلى نتائج يطمئن لها العالم ، وقعت في القرن التاسع عشر (١) لكنها - الى اليوم - لم تزد على تقرير ان المركز (١) وعند الايجي في كتاب المواقف (انظر الاشارة الى ذلك بهذا الكتاب ص ٨٣) .

(٢) كما وصل الباحثون الى معرفة كثير من الامراض الفكرية عاقد

الحقيقى للعقل، والملكات المختلفة في الدماغ وفي الجهاز العصبي.
من ذلك الحين اتجهت انظار بعض العلماء الى اكتشاف ما في
هذا (المقر)، فوصل (هانس برجي الالماني Hans Berger)
الى أن بالدماغ موجات كهربائية [هذا آخر اكتشاف بالدماغ،
سنة ١٩٢٩]، وظهر في السنوات الاخيرة كتاب فرنسي في
هذا الموضوع عنوانه: « التموجات الدماغية وعلم النفس ».
(Les ondes cérébrales et la psychologie) بقلم جان دولي
Jean Delay وهو كتاب قيم.

وكل ما بقى الآن مقطوعاً به علياً :

١ - (في سنة ١٨٦١) وجود مركز الكلام (مركز بروكا
Broca) بالمنطقة اليسارية من الدماغ.
٢ - (من سنة ١٨٧٠ الى ١٨٧٧) : وجود مراكز محرّكة
في الوسط.

٣ - (من سنة ١٨٧٠ الى ١٨٧٧) : وجود مراكز الادراك
البصري في اسفل مؤخر الدماغ، ومراكز أخرى لبعض
الادراكات الحسية.

*

* *

جل التجارب تقع على ادمغة المرضى بعد موتهم وعلى ادمغة المعاتين.

ولنرجع الآن الى الفصول الباقية :

أولها في « أن تمام السعادة على ثلاثة أشياء : قوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقوة العلم » .

ثانيها فصل في أن للقلب مع عسكري أحوالا وصفات بعضها يسمى أخلاق السوء ، وبعضها أخلاق الحسن .

الثالث في أن جلد ابن آدم أربعة أشياء : الكلب ، والخنزير ، والشيطان ، والملك .

بعده يأتي فصل في أن الإنسان في صورة آدم ، وغدا تنكشف له المعاني ، فتكون الصورة في معنى المعاني .

ونجد في هذا الفصل النظرية الآتية (ص ١٣) :

« ان الصور تابعة للمعاني ، وإنما يبصر النائم في نومه

ماصح في باطنه ... » ، هذه الفكرة من أسس مذهب (فرود

(Freud) (وسط كل SteKel) ومدرستهما في الدراسات

النفسية التي تعتمد على الاحلام . وما يسميه ابو حامد (الباطن)

هو نفس مايعبر عنه في اصطلاحات علم النفس بالعقل الباطن .

ونجد أيضاً في (المقدمة عند ابن خلدون) محاولات علمية

في تحليل الرؤيا .

ثم ياتي بعدهذا الفصل، فصل آخر تكميلي ، وإثرهما ثلاثتا فصول في عجائب القلب تقتطف من ثانيهما (ص ١٥) :
 « ان القلب مثل المرأة ، والروح المحفوظ مثل المرأة ايضاً لأن فيهما صورة كل موجود ، واذا قابلت المرأة المرأة الأخرى حلت صور مافي احدهما في الأخرى ، وكذلك تظهر صور مافي اللوح المحفوظ الى القلب ^(١) إذا كان فارغاً من شهوات الدنيا ... » .

نصل الى فصلين في التصوف والحض عليه ، يعقبهما آخر في أن اللذة والسعادة لابن ءادم في معرفة الله تعالى .
 ومن المفيد أن ننقل هنا من الفصل الذي يلي هذا الفقرة :
 « إن نفس ابن ءادم مختصرة من العالم وفيها من كل صورة في العالم أثر منه ، لأن هذه العظام كالجبـال ، ولحمها كالتراب ، وشعرها كالنبات ، ورأسمه مثل السماء ، وحواصه مثل الكواكب ، وتفصيل ذلك طويل ، وايضاً ، فإن في باطنه صناع العالم ، لأن القوة التي في المعدة كالطباخ ، والتي في الكبد كالخباز ، والتي في الامعاء كالقصار ، والذي يبيض اللبن ويحمر الدم كالصبـاغ ، وشرح ذلك طويل » (ص ١٩) .

(١) لا يبعد أن تصبح هاته الفكرة أساساً لحل مشكلات عويصة الى اليوم

كـ (La télépathie) وكـ (La transmission des pensées)

ان المثاليين الذين أتيت بهما ، من تشبيه اللوح المحفوظ
بالمرآة . . . وجسم الإنسان بالعالم ، ليعطينا صورة عن ما كان
لابى حامد من قوة الملاحظة في أشياء المحسوس والباطن ، وقوة
النفس فى متابعة التشبيه إلى النهاية .

ثم ينتقل بنا إلى الفصول الثلاثة الأخيرة التى يحض فيها
على الزهد فى الدنيا كلها : « وكل شرف لم يظهر فى الدنيا
فهو فى الآخرة فرح بلاغم ، وبقاء بلافناء . . . »

☆☆☆

ماذ نستنتج من هذه الدراسة ؟

نستنتج من هذا كله ان كتاب كيمياء السعادة الذى يتحدث
إلينا عنه (م كارا) ليس هو الموجود « بإحدى كتبخانة الاستانة »
والذى درسناله فى هذا الفصل ، وذلك ، (١)

أولا : لم نعر فى المصنف الأخير على مثال الفيل ومدينة
العميان ، ولا على تمثيل العالم بقصر (وكل هذا يوجد بنسخة م كارا)
ثانيا : إن م كارا يقول عند سوقه لثال المنجمين والاطباء ما يأتى
« . . . وفى الترجمة التركية للجزء الاول ص ٥٦ . . . » فعلى
هذا يكون (كيمياء) م كارا فى أجزاء [أو على الأقل فى جزءين]

(١) انظر الفصل المتقدم .

أما [كيمياء] مطبوعة السعادة في جز، واحد [وهو اكبر تقدير]؛ كما يؤخذ من هذا أن [الكيمياء الاول] كتاب يبلغ عدد صفحاته الستين على أقل تقدير [وهو أجزاء] وان الكيمياء الثاني مصنف صغير لا يتعدى عشرين صحيفة .

ملاحظات :

- (١) فلا يبعد إذن أن تكون هناك كيمياء السعادة (الكبرى) و كيمياء السعادة (الصغرى) ألف كل منهما على حدة وبالعربية .
- (٢) أو أن الثانية مختصرة من الأولى، وان المختصر هو الغزالي نفسه، أو المترجم التركي أو الفرسى .
- (٣) كما لا يبعد أن يكون ابو حامد قد ألف كتاباً بالعربية، وآخر بالفارسية (أحدهما أكبر من الثانى) واطلق عليهما اسماً واحداً، وإنما الالتباس اتى من التراجم التركيين .
- (٤) وان ناسخاً زاد (غلطاً) في نسخة من النسخ لفظة (والعلوم)، فكتب هكذا (كيمياء السعادة والعلوم) (كما عند الامتاذ (١) محمد رضا) فنقلها بعض الرواة على ذلك الشكل، ويؤيد هذا ما نرويه عن الغزالي نفسه، قال :

(١) انظر الفصل الماضى .

«... وأماماتوهمه أهل الإباحة، فقد حصرنا شبههم في سبعة أنواع وكشفناها في كيمياء السعادة». (كتاب المتقدم من الضلال).

*

★ ★

الرسالة الدنية:

ثم نستمرسل في سياحتنا بداخل المصنف الذي طبعته مطبعة السعادة، فنصل الى الرسالة الدنية.

هي إجابة لطلب صديق يريد من الغزالي ان يذكر طرفاً من مراتب العلوم، وان يتبسط بالخصوص الى العلم الغيبي اللدني الذي يعتمد عاينها خواص المتصوفة، وأن يصحح ويعزى لنفسه ويقر على إثباتها.

بعد الفصل الاول في تعريف العلم والحض عليه، يأتي فصل ممتع في شرح النفس والروح الانساني، أرى من المفيد أن أنقل منه هذا المختارات: بعد أن عرف الروح الحيواني والروح الطبيعي، قال عن النفس (ص ٢٧):

«وحيثما نقول الروح المطلق او القلب فإنما نعني به هذا الجوهر، والمتصوفة يسمون الروح الحيواني نفساً، والشرع ورد بذلك، فقال: أعدى عدوك نفسك، وأطلق الشارع اسم

النفس بل أكدها بالإضافة ، فقال : نفسك التى بين جنبيك ، وإنما أشار بهذه اللفظة الى القوة الشهوانية والغضبية ، فإنهما ينبعثان عن القلب الواقف بين الجنين » .

ثم يلاحظ على المتكلمين تعريفهم النفس بالجسم اللطيف ، وعلى من يقول إنها عرض ، وعلى من يرى الدم روحا (١) .
إثر هذا شرع يتكلم عن الجسم ، والعرض ، والجوهر الفرد (٢) (ص ٢٨) .

« فالروح الحيوانى جسم لطيف كأنه سراج مشتعل موضوع فى زجاجة القلب ، أعنى ذلك الشكل الصنوبرى المعلق فى الصدر . والحيالة ضوء السراج والدم دهنه ، والحس والحركة نوره ، والشهوة حرارته ، والغضب دخانه ، والقوة الطالبة للغذاء الكائنه فى الكبد خادمه وخارسه ووكيله ، وهذا الروح يوجد عند جميع الحيوانات . والإنسان هو جسم وآثاره أعراض . وهذا الروح لا يهتدي الى العلم ، ولا يعرف طريق المصنوع ، ولا حق الصانع ، وإنما هو خادم أسير يموت بموت البدن . لو يزيد

(١) انظر هذه الفكرة بهذا الفصل .

(٢) وهو فصل ممتنع من واجب القراءة على أن آتى بها . ومن واجبي عليهم أن يقرؤوه .

الدم ينطفئ ذلك السراج بزيادة الحرارة ، ولو ينقص ينطفئ
 بزيادة البرودة . وانطفأؤه سبب موت البدن ، وليس خطاب
 البارئ سبحانه ، ولا تكليف الشارع لهذا الروح ، لأن البهائم
 وسائر الحيوانات غير مكلفين ولا مخاطبين بأحكام الشرع .
 والانسان إنما يكلف ويخطب لأجل معنى آخر وجد عنده
 زائداً خاصاً به . وذلك المعنى هو النفس الناطقة والروح المطمئنة ،
 وهذا الروح ليس بجسم ولا عرض ، لأنه من أمر الله تعالى ، كما
 قال : « قل الروح من أمر ربي » وقال « يا أيتها النفس المطمئنة
 ارجعي الى ربك راضية مرضية » . وأمر البارئ تعالى ليس بجسم
 ولا عرض ، بل قوة إلهية مثل العقل الاول والالوه والقلم ،
 وهي الجواهر المفردة المفارقة للمواد ، بل هي أضواء مجردة
 معقولة غير محسوسة . والروح والقلب بلساننا من تلك الجواهر ،
 ولا يقبل الفساد ولا يضمحل ولا يفنى ولا يموت ، بل يفارق البدن
 وينتظر العود إليه في يوم القيامة .

ويقول عن الروح الناطق إنما ليس بجسم ولا عرض .
 بل هو جوهر ثابت دائم غير فاسد

ويزيد قائلاً : إن العرض لا يفنى بعد فناء الجوهر ، لا نرى

لا يقوم بذاته ، وإن الجسم يقبل التحليل كما قبل التركيب من
المادة والصورة .

ومن هنا ينتقل الغزالي يقرر التصوف .

نصل الى فصل في طريقة تحصيل العلوم (التعلم الإنسانى
والتعلم الربانى) ، وهنا يتحدث عن الوحي والإلهام .

نتقل الى فصل في مراتب النفس والنسيان والفطرة .
وأخيراً نختم بفصل عن حقيقة العلم اللدنى وأسباب حصوله .

*

* *

كانت - وأنا أحرر هذا الفصل - تتنازعنى فكرتان : المحافظة

على وحدة الموضوع ، ومن جهة أخرى إطلاع القاري ، على
ما في هذين الرسالتين من مسائل مفيدة ، ففضلت الفكرة الثانية
على الأولى بعد أن ألزمت نفسى بالإشارة أكثر ما يمكن لأن
الاستفاضة في التحليل ، مدعاة الى تطويل ، وليس لى فى هذا
الكتاب الى ذلك من سبيل ، فمعذرة .



راي الغزالي في علم الكلام

للغزالي تأليف وجيز سمالة (إجماع العوام عن علم الكلام)
يعرض فيه بوضوح ، وبفكر لا التحليل المعهود كيف يفهم نفسية
العوام الدينية ، ويوجب فيه على العامة ان يجمعوا عن كثرة
البحث والخوض في مسائل هذا العلم ، فذلك ضروري لهم :
كما انه يجب على من لا يحسن السباحة ان يمسك نفسه عن الامتجاء
على أعماق البحر وصونها عن مزلق الشطوط ، يجب كذلك صون
العامة عن هذا العلم ، فيجب عليهم ان يكتفوا في الغالب بالحجج
المأخوذة من القرآن وان لا يبحثوا او يفكروا الا قليلا جداً (١) .

(١) والكتاب مطبوع يقع في ٤٢ صحيفة من الحجم الصغير ، وقد اتبع
فيه المؤلف ، كعادته ، حسن التبويب . وهو يحتوي على ثلاثة أقسام :

(أ) بسط مذهب السلف في العقائد .

(ب) ترجيحه بالدلة ، وإظهار أن مخالفهم مبطلون .

(ت) آراء مختلفة لها علاقة بهذا الموضوع .

وذكر صاحب (كشف الظنون) كتاباً آخر للغزالي اسمه (مقصد

الخلاص في علم الكلام) .

ويقول إنه قد جمع في كتابه (جواهر القرآن) (٢) ما يناهز ٥٠٠ آية تختص بمعرفة الخالق ، فبهذا يجب ان يعرف العامة عظمة الله وعزته ، لا بحجج المتكلمين .

فمقدمات المتكلمين وتقسيماتهم وحججهم المعقدة إنما تحدث اضطراباً في القلوب الهادئة عوضاً من أن تقنعها ، فالبراهين المأخوذة رأساً من القرآن تقنع عقولهم ، وتسكن أرواحهم ، وتربى فيهم إيماناً راسخاً ، ومثل ذلك ما يقع في المعتقدات الأخرى : وحدانيته تعالى ، وصدق النبي ، والإيمان باليوم الآخر . ويرى الغزالي أن الإيمان ست درجات :

في الأولى : يرجع الاعتقاد الى الدلائل المشروحة تماماً قضية بقضية وكلمة بكلمة والمستوفى شروطها ، فهذه هي الحجة العلمية (الهندسية) ، لكن العقول التي تصل الى هذا الحد قليلة جداً ، (وهذه هي المرتبة القصوى)

وفي الدرجة الثانية : الإيمان عن طريق البراهين الوهمية الكلامية ، المشهورتين جهابذة العلماء المسلمة المصدق بها ، وهذه أيضاً طبقة لا يصعد اليها كل الناس .

(٢) انظر الكلام عنه بعد هذا الفصل

وأما الدرجة التي تلي: فتنحصر في الثقة بالادلة الخطابية المعروفة والكثيرة الاستعمال.

وأما إيمان الطبقة الرابعة: فيرجع إلى الخضوع لبعض التعاليم، كما إذا أصغينا إلى رجل نثق به كالأب مثلاً أو الأستاذ. والاعتناع عن هذه الطريقة متين، وهكذا يلقى الصبي عن طريق أبويه أو أساتذته دون أن يطالب بأدلة.

وأما القسم الخامس: فيتألف من إذعان العوام بسهولة عند سماع الشيء مع قرائن احوال لا تفيد الانطباع عند المحقق، كما إذا علم قوم بمرض أمير، ثم سمعوا صياحا وعويلا يتصعدان من داره، فيستنتجون موته أو بلوغه السياق، وهنا يلاحظ الغزالي أنه يمكن أن يكون هناك غواية، لكننا لا نتصور هذا الضلال في حق النبي الذي رآه وسمعه الكثير من العرب، ورأوا خصاله الحميدة، وأفعاله الطيبة قيد حياته.

وأخيراً نصل إلى إيمان الدرجة السادسة: الذي ينحصر في كون العامي يصدق بسهولة ما يعيل إليه، وما يطابق طبيعته، وهذا هي أضعف درجات الإيمان. (١)

«١» وفي كتاب احياء علوم الدين فصل عنوانه (آفات العشرون: سؤال العوام عن صفات الله تعالى)، كتاب آفات اللسان،

وبناء على هذا، فإن أعلى درجات الإيمان - بالنسبة للعامة -

هي التي تتكون من الحجج الماثورة عن القراءان، أو ما يجري مجرى ذلك، كمواقف الخطباء التي تحرك الأفتدة إلى التصديق، فمع العامة يجب أن يوقف عند هذا الحد، فكل ما تجاوزته تعدى طاقتهم، فالكثير من الناس يومنون في صباهم لمجرد التقليد لأبائهم أو لأساتذتهم، ولحسن ظنهم بهم، وحكاية هؤلاء، بين أيديهم لبعض الخرافات، كالعقوبات التي حصلت لمن ليسوا على عقيدتهم: (١) إن اليهودي الفلاني قد وجد في قبره غولا هائلة، وإن رافضيا قد تحول خنزيرا، فكل هذا يرسخ في ذهن الصبي رسوخ النقش على الحجر، وبقدر ما ينمو منه بقدر ما يزداد تعلقه بالعقيدة وثوقا، حتى إذا بلغ أشده أصبحت إيمانا لا يشوبه ريب (ولهذا نرى صبيان المسيحيين والرافضيين والمجوس والمسلمين يشبون جميعا محتفظين على عقيدة آبائهم، سواء كان هذا الإيمان مبنيا على حق أو على باطل، فلو قطعتم إربا إربا ما تخلوا عن

«١» يقول العالم الاجتماعي جبرائيل طارد (Gabriel Tarde) «إن التقليد شيء اجتماعي أساسي مطرود في العالم».

ذلك الايمان ، (١) فهم لا يقبلون الدلائل العقلية ولا الدلائل (النقلية) ، وكذلك نرى ان الأسارى من المشركين الذين لا يعرفون شيئاً عن الاسلام ، يعتقدوننا بعد أن يقضوا وقتاً تحت سلطة المسلمين وذلك حب في التقليد ، والخلاصة هي ان التصديق الجازم لا يعتمد على البحث واختبار البراهين وتلازمها.

☆☆☆

ان كل هذا الفصل الذي اضطررنا الى تلخيصه مهم ومهم جداً لا يخاف من استسلام للقدر مع ارتياب ، أو على الأقل يخلط بين العقيدة والعادة ، فينشأ عن هذا أنه ليس لدهماء الناس - فيما يتصل بالدين - الا ان يتبعوا مقدورهم ، فمحيطهم وازديادهم هما اللذان يجهلان منهم مومنين أو كافرين . (٢)

« ١ » هذه الفكرة إسلامية :

« كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه ، كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها من جدعاء » حديث شريف أخرجه البخاري وغيره .

على أن هذا الحديث يعنى بالفطرة الاسلام ، ويجعل ماعداه من المعتقدات عوارض تحدث من جراء تأثير الوسط الذي يعيش فيه الصبي . وقد عقد الجاحظ فصلاً في مسألة التقليد بكتاب الحيوان ، كما أشار الى هذا الحديث الغزالي في (المنقذ من الضلال) عند كلامه على الفطرة ، وللرئيس ابن سينا أيضاً كلام على الفطرة .

« ٢ » من الذين دافعوا عن علم الكلام وقاموا برد الفعل ضد هجومات الغزالي ، عضد الدين الايجي (انظر فصل كتاب المواقف)

مؤلفات الغزالي ذات الصبغة الفلسفية

القحة

« أهم هذه المؤلفات هي :

(١) المنقذ من الضلال .

وهو تصنيف صغير ترجم مرتين للفرنسية بقلم شمولديرس
Schmœlders وبقلم Barbier de Meyard) باريبي دومينار
طبع بمباي وبالقاهرة .

(٢) المضنون بما على غير أهلها (الكبير والصغير) .

(٣) مقاصد الفلاسفة، وهو الكتاب الذي ذكره ابن رشد .

*

* *

لم يزد (مكارا) في التعريف بهذه الكتب على هذا الإشارة؛
وبما أنها مصنفات ذات قيمة كبيرة، لا أرى بدّاً من الوقوف هنا
والتعليق عليها تعليقا مناسباً .

على هامش هاتم الكتب الفلسفية

(١)

المنقذ من الضلال ،

طبع بالقاهرة مرتين ، أولا سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩٢ - ١٨٩١) ،
وثانيا سنة ١٣١٦ هـ ، وطبع كذلك ببيروت ودمشق عام ١٩٣٤
وباسطنبول (١٨٧٦ م) .

أما بأوروبا فكانت أول طبعة عام ١٧٤٢ ، وتوجد ترجمته
بالفرنسية بالمجلة الامياوية (١٨٧٧) ، كما درسه دراسة علمية
شمولديرز (Auguste Schmoelders) سنة ١٨٤٢ ونشروا
مصحوبا بترجمة فرنسية .

يقع في ٤٨ وجها من الحجم الصغير ، الفه الغزالي بعد ان
جاوز الخمسين من عمره .

*

* *

يحمل فيه حجة الاسلام على التقليد ، ويدعو إلى الوصول

للحقائق مباشرة .

كما يصف فيه حالات النفسية المختلفة ، وما حصل له من صعوبات كبيرة حين غشيت أمواج المبادئ الفلسفية المختلفة المتضاربة ، وكيف دفعه السيل إلى هوة الاضطراب والشك في كل شيء (١) .

إن الغزالي يريد أن يقتنع عن طريق اليقين ، فمطلوبه العلم بحقائق الأمور ، فالعلم اليقيني الذي ينشد هو الذي ينكشف معه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكانية الغاط والوهم ، أو كما يقول (ديكارت في كتابه حديث المنهج) .

« لا أقبل أبداً صحة أي شيء ، إلا إذا اتضح لي بديهياً أنه صحيح »
(القانون الأول من قوانين المنهج الأربعة) ، ويقول (مالبرانشي Malebranche) : « إنه من المضحك أن نتفلسف ضد التجربة » .

فالأمان من الخطأ ، في نظر الغزالي ، ينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنته بحيث لو : « تحدى بإظهار بطلانه مثلاً من يقاب

(١) قارن بين هذا وبين الشك عند ديكارت Descartes الذي سميت عليه الكلام عليه . على أن نلاحظ أن الغزالي يجعل من شكه بحثاً سليماً ، لا مبدأً أساسياً كما يفعل ديكارت الذي يعتمد على الشك كأساس منه يصعد إلى اليقين ، فيصل به بحثه إلى نتيجة إيجابية .

الحجر ذهباً والعصى ثعباناً، وقلوبها وشاهدت ذلك منى لم اشك
بسببها في معرفتى ، ولم يحصل لى منى الا التعجب من كيفية
قدرته عليه ، فأما الشك فيما علمت فلا ، ثم علمت أن كل مالا اعلمه
على هذا الوجه ، ولا اتيقنه على هذا النوع من اليقين ، فهو علم
لا ثقة به ولا امان معه ، وكل علم لا امان معه فليس بعلم يقينى .»

ثم انتقل به شكها الى التفتيش عن العلوم التى يمكنه تطبيقها
على هذه القواعد التى فرضها على نفسه ، فيئس من وجود علم
موصوف بتلك الصفات ، وكانت النتيجة ألا مطمع فى اقتباس
المشكلات الا من الجليات وهى الحسيات والضروريات ، وهذه

النتيجة هي أساس مذهب (الأمبيريسم L'Empirisme)

المؤسس فى أوروبا بالعصر الحديث ، ومن زعمائه (لوك Locke
الانجليزى ١٧٠٤ - ١٦٣٢) ؛ وهى أيضاً أساس المدرسة الإحساسية
(Sensualiste) التى يترأسها (كونديلاك الفرنسى
Condillac ١٧٨٠ - ١٧١٥) .

ثم يتسع نطاق الشك : « فانهى بى طول التشكيك إلى
أن لم تسمح نفسى بتسليم الامان فى المحسوسات أيضا . . . » .

وهنا يأتى الغزالى بأدلتها هي غاية الدقة في الاحتجاج على ضعف الحواس، ممثلاً بأغلاط اقواها، وهي حاسة البصر حتى وصل الى التصريح بأننا: « قد بطلت الأثمة بالمسحوسات أيضاً، فلعلنا لا ثقة الا بالعقليات ... » .

أخذ يرتاب فى صحة النتائج التى يصل إليها بالحس لما بينها وبين نتائج الحكم العقلى من تباين فى غالب الاحيان، « يجب على الفكر ان يحكم على الاشياء معتمداً على قوته الداخلية فحسب، دون أن يصغى لشهادة الحواس والمخيلة الخاطئة المبهمة . » (مالبرانش، كتاب البحث عن الحقيقة)؛ ويؤيد هذا النظرية كذلك افلاطون، والتديس أجيستان، وديكارت، وبرجسن وهانرى كارى وغيرهم ..

على أن أبا حامد لم يكن ليطمان إلى أحكام العقل، مادامت احكام العقل نفسها، من جهة تتناقض. ومن اخرى تخضع لتأثير الحالة النفسية التى نحن عليها ساعة الحكم، وعليه، إذا تغيرت الحالة النفسية تغير الحكم، وبما ان الحالات النفسية تتجدد، فما هو ياترى الحكم الصائب، هل الاول « حين صدر مثلاً عن نفس متأجج غضباً » ؟ ام الثانى (وقد قال به المرء بعد ان خفت وطأة الغضب

وهذا روعه) ؟ ...

اخذ يتسرب للغز الى الارتياب في صحة احكام العقل نفسه ،
فصاح بأعلى صوته : « . . فلعل وراء إدراك حاكم العقل حاكم
آخر إذا تجلّى يكذب العقل في حكمه كما تجلّى حاكم العقل
فكذب الحس في حكمه ، وعدم تجلّى ذلك لا يدل
على استحالة . . (١)

يقف بنا الغز الى عند هذا الحد ، وقد جردنا من الثقة في حواسنا
وعقلنا وحذرنا من تقليد الغير ، يقف بنا وسط طريق لانعرف
له مسلكا ، في ليلته ليلا ، وقد جن ظلامها ، فلما رأى منا الحيرة ،
ونحن نتساءل : قد وصلنا الى سلب شامل ، فما العمل ، انبقى
تحت هذا الظلام الحالك لا نتقدم ولا نتأخر ؟ قال : انتظروا
حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من القاب ،
فبعد ريبى واضطرابى وجدت طمانينتى في التأمل ، وضالتي
عند الصوفية وفي المغامرة في خمرتهم ، « فارتضيت التصوف ،
وازدريت طرق التفلسف » ، وهذا الحل الاخير مال إليه قلبي
بإلهام إلهي ، اتبعوا وحي قلوبكم ، وفندوا كل ما تصلون إليه

(١) نجد كانت الفيلسوف الالمانى (سياتى الكلام عليه) ينتصر لهذه
النظرية في (كتاب انتقاد العقل المجرد) .

بمحاسنكم، ولا تقبلوا البداهيات عقولكم، إني لكم من الناصحين (١)

*

* *

يقول الاستاذ لطفى جمعه في كتابه (تاريخ فلاسفة الاسلام) ص ٧٤ : « إن بعض كتاب الأفرنج يصفون كتاب الغزالي المسمي (المضنون به على غير اهله) باعتراقات الغزالي تشبيها له باعتراقات جان جاك روسو ». (٢)

إن الاستاذ قد غلط في هذا ، فكتاب (المنقذ من الضلال) هو الذي يطلق عليه الغربيون (اعتراقات الغزالي) ، وهو الذي يستحق هذا الوصف ، لانه رسالتا يتكلم فيها حجة الاسلام بسداجة ولهجة تدل على الصدق والإخلاص عن تطوراته الفكرية ، وعن اشتغاله بالعلم أولا ، ثم عما طرأ على نفسه من ازيمات روحية ، الشيء الذي جعل هذا الكتاب مرآة تنطبع فيها صورة ابي حامد وما جريات حياته احسن انطباع ، فعول عليه من درسوا حياته كالسبكي من القدماء ، في [طبقات الشافعية الكبرى] ، ومن المحدثين الدكتور زكي مبارك في اطروحته

-
- (١) سنعود إلى هذه النقطة بتفصيل في فصل «مذهب الشك» وعندردنا على الدكتور زكي مبارك
- (٢) انظر حياته في آخر الفصل .

(الاخلاق عند الغزالي).

وها فقرات من مقدمة (المنقذ من الضلال) تلقى نورا على الموضوع، قال الغزالي مخاطبا سائلا :

«اما بعد، فقد سألتني ايها الاخ في الدين ان أثبت اليك غاية العلوم وامرارها، وغاية المذاهب واغوارها، واحكي لك ما قاسيتها في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق، وما استجرات عليها من الارتفاع عن حضيض التقليد الى بقاع الاستبصار، وما استفدته اولا من علم الكلام، وما احتويته ثانيا من طرق اهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تقليد الامام، وما ازدريته ثالثا من طرق التفلسف، وما ارتضيته اخيرا من التصوف، وما انحلت في تضاعيف تفتيشي عن اقاوين الخلق من لباب الحق، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة، وما دعاني إلى معاودتي بنيسابور بعد طول المدة.»

ويجب هنا ان نتساءل : بما ان الغزالي لا يعتمد على العقل والمنطق في الاحكام، كيف ساغ له ان يختار «اخيرا» التصوف، من بين مختلف المذاهب التي درس حججها، والطوائف التي تفحص مبادئها؟ ان هذا اختيار عمدته شيء آخر غير العقل وغير

الحس ، ان مصدره لا وازع داخلي ، ذلك هو (الافتطار) او ما يعبر عنه (في المنقذ من الضلال) بالذوق ، وعلى هذا يكون الغزالي قد سبق (برجسن المولود ١٨٥٩ بباريز Bergson) الى معرفة اساس المذهب (الافتطاري L'Intuition) ، بيد انه اهتدى له ولم يحلله تحليلًا علميًا ، ولم يعطه حق من العناية والفحص كما فعل برجسن الذي جعل من الافتطار مدرسة جديدة في الفلسفة ، يقول الاپام الغزالي في مقدمة المنقذ : «... وقد كان التعطش الى ادراك حقائق الامور دأبي وديدني من اول امري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله تعالى وضعها في جبلتي ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت على

العقائد الموروثة . . . »

نرى انه يحوم حول الافتطار ولكنه ، وبالاسف ، يرددون ان يقف . ان العلماء المعاصرين يتفقون على نظريته في كون الافتطار في الجبلية « غريزة وفطرة » ، وانه « لا يخضع للاختيار والحيلة » ، فالتفكير المنطقي اذن ليس هو مجموع الفكر ، وان الوصول الى المعرفة لا يكون دائماً وابدأ عن طريق الحواس ، وعن طريقها فقط ، بل ان بداخلنا عالمًا لا يرتكز على قوانين المنطق ولا

على نتائج الحواس ، عالم فكر غير واضح .
 هكذا فطننا الغزالي الى وجود هذا العالم الداخلي ، وعودنا
 ان نتعرف بالحياة النفسية من جهة عمقها عوضا من ان نقف
 بالمساحة كما كان يفعل القدماء ، وجاء برجن ومدرسته فاكشفوا
 من جديد هذا العالم النفسي العميق الغامض ، وقادونا معهم في
 سياحات بداخله ، ولم يكتفوا بالوقوف بتخومها كما فعل
 ابو حامد .

*

* *

ويزعم الاستاذ لطفى جمعة ايضا ان ابا حامد يستهل كتاب
 (المضنون به على غير اهلها) بالفقرات التي اوردتها في ص ١٤٩
 وهذا غلط ، اخر ، اذ هي من مقدمة المنقذ من الضلال ، اذ لو
 صح ذلك لكان زعمه الاول ، من ان (المضنون) هو (اعترافات
 الغزالي) ، صحيحا ايضا ، لان تلك الفقرات تلخص حياة ابي
 حامد الفكرية ، وتشعرنا من اول وهلة من ان الكتاب الذي
 أخذت منه (اعترافات) حقاً وليس على الاستاذ لطفى ولا على
 القاريء الا أن يرجع للمصنفين (وهما مطبوعان) ليقف على
 عين الصواب .

انظروا الآن معي الى هاتين الجملتين التي أنقلهما من (المنقذ)، ثم بعد ذلك الى ملخص (المضنون) لتقارنوا، يقول الغزالي — المنقذ (ص ٩):

«... والغرض الآن حكاية حالي لا...»

وفي ص ٢٨: «... ثم تفكرت في نيتي في التدريس فيما هي غير خالصة لوجه الله تعالى بل باعتهما ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت...»، فهذان اعترافان صريحان (١).
وانستمع اليه يتحدث عن نفسه في المنقذ من الضلال (ص ٣، المطبعة الجمالية سنة ١٣٢٩):

«ولم ازل منذ راهقت البواغ قبل العشرين الى الآن وقد اذاف السن على الحسين... اتوغل في كل مظلمة، واتهمج على كل مشكلة... واتفحص عقيدة كل فرقة، وامتنع شفا سرار مذهب كل طائفة لا أميز بين محق ومبطل، ومتسئن ومبتدع، لا اغادر باطنياً الا واحب ان اطلع على بطانتهم، ولا ظاهرياً الا واعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفياً الا واقصد الوقوف على كنه فلسفته،

«١» ألاحظ ان مكارا لم يهتم بكتيب المنقذ بقدر ما فعل بالكتيب الاخرى، مع ان هذا المصنف الصغير يشرح حياة مترجمنا الفكرية وانهجابه في الميادين المختلفة أكثر من سواه.

ولا متكلياً الا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجاداته،
ولا صوفياً الا واحرص على العثور على مرسفوته، ولا متعبداً الا
وارتصد ما يرجع اليه حاصل عبادته، ولا زنديقاً مطعلاً الا
واتجسس وراءه للتنبيه لاسباب جرأتها في تعطيله وزندقته،
وقد كان التعطش الى ادراك حقائق الامور دأبى وديدني من
اول امري ... »

هذه الفقرات تزيدنا تبصرة بتيمة (المنقذ) وايماناً بأنه اولى
من سواها بلقب (اعتراقات)، كما تزيدنا تقديراً للغزالي ولفكره
الجبار الذي استطاع ان يتفحص مختلف المذاهب، وان يهضم
الكثير من افكارها المتضاربة المتشعبة، حتى كوّن فكرة عامة
في جل اصناف المعارف الذهنية الموجودة في عصره، ورائد
في ذلك الوصول الى الحقيقة عن طريق البحث والاجتهاد، لا
يرضي لنفسه الجمود ولا يقتصر على التقليد.

*

* *

يمكننا أخيراً أن نخرج من دراسة (المنقذ) بالنتيجة
العامة الآتية :

إن هذا الكتاب يعطينا صورة حية عن ما حصل للغزالي

من شك وما مر به من حالات متغيرة، وأنه شبر غور كل عويصة الى ان وجد ما يشفي غليله في التصوف فارتضاه مذهبا، وتتلخص المراحل التي مر بها فيما يلي :

أولا: الفطرة (الاعتقادات الموروثة) في الصبا.

ثانيا: التكوين الفكري الأول والاستعدادات (من الصبا الى البلوغ).

ثالثا: دور البحث (من سن العشرين).

رابعا: (بعد ان عمر خمسين سنة): اعتناق التصوف والاطمئنان اليه عن طريق الافتطار (١).

*

* *

(٢)

المضنون به على غير أهله:

ولنلق الآن نظرة على المضنن ، فهناك مضنونان :

المضنون به على غير أهله (الأكبر) :

يشك الشيخ مرتضى في صحة نسبته للغزالي ، كما شك في

«١» وقد قيل إنه تاب في آخر أمرة من التصوف ، ومات مقتنعا بمذهب السلف .

ذلك غير واحد من الباحثين ، كابن السبكي في طبقاته ، فيأنى
يروى أن ابن الصلاح ذكر أن هذا الكتاب منسوب إلى أبى
حامد ، وقال معاذ الله أن يكون له ، وبين سبب كونه مختلفا
موضوعا عليه .

طبع بالقاهرة أولا سنة ١٣٠٩ هـ ، وثانيا سنة ١٣١٦ هـ .

محتوياته :

- (أ) معرفة الربوبية .
 - (ب) معرفة الملائكة .
 - (ج) حقائق المعجزات .
 - (د) معرفة ما بعد الموت والانتقال من الدنيا الى العقبى .
- وفيه آراء تخالف المشهور عند الأُشاعرة (كقدم العالم ،
ونفى علم القديم بالجزئيات ، ونفى الصفات) وسيحيط هذه الأفكار
في كتابه تهافت الفلاسفة .

*

* *

المضنون به على غير اهله (الاصغر) :

فيه أجوبة عن المسائل الأخوية .

مطبوع (١٢ ص من الحجم الصغير) بالمطبعة الجمالية (١)
 بمصر سنة ١٣٢٩ هـ تحت هذا الاسم : [المضنون الصغير ، وهو
 الموسوم بالأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية] ، أما [مليون
 جوتي في تعاليقه الفرنسية على رسالة حى بن يقظان لابى بكر بن
 الطفيل ، فيسميه بكتاب « النفخ والتسوية » أو المضنون الصغير .
 ويقول صاحب كشف الظنون :

« ورأيت في مسامرة الشيخ الأكبر أنه قال : إن الشيخ أبا
 الحسن على المسفر كان جليلا حكيما عارفا فمحول الذكر ، ورأيت
 بسببه له تصانيف منها [منهاج العابدين] الذى يعزى لأبى حامد
 الغزالي وليس له ، وإنما هو من مصنفات هذا الشيخ ، وكذلك
 أيضا كتاب (النفخ والتسوية) الذى يعزى لأبى حامد أيضا ،
 وتسميه الناس (المضنون الصغير) .

نجد فى أول ص من الكتاب ، بعد البسملة هاتى الفقرات
 التى هى تلخيص لما فى : « سئل الشيخ الامام ... الغزالي عن
 معنى قوله تعالى : (فإذا سويتموهم فنفخت فيه من روحى) ،
 ما التسوية وما النفخ وما الروح ؟ فبعد أن شرح التسوية والنفخ
 (١) طبع سنة ١٣٠٩ هـ وعام ١٩١٣ هـ بالقاهرة طبعة رديئة .

قال عن الروح : « ليس بجسم يحل البدن حلول الماء في الإثاء ، ولا هو عرض يحل القلب والدماغ حلول السواد في الاسود والعلم في العالم ، بل هو جوهر وليس بعرض لانه يعرف نفسه وخالقه ويدرك المعقولات ، وهذا علوم ، والعلوم أعراض ، ولو كان موضوع العلم قائما به لكان قيام العرض بالعرض ، وهذا خلاف المعقول ... »

*

* *

يتضح مما تقدم ان كتاب (المنقذ من الضلال) هو الذي يشبه اعترافات جان جاك روسو - من بعض النواحي فحسب ، إذ بينهما بون شاسع في كثير من الجهات - ، وأن كتابي (المضنون به على غير اهلها) - الاكبر والاصغر - لا يمكن ان يطلق عليهما اعترافات الغزالي .

والاستاذ لطفي جمعه يشير الى (المضنون) دون تمييز بين الاكبر والاصغر حتى اننا لاندرى أيهما يقصد ، ومهما يكن من شيء ، فعلى فرض ان (المضنون به على غير اهلها الاكبر) للغزالي فإنّه لا يصلح ان يكون (اعترافات أبي حامد) بله المضنون الاصغر .

*

* *

(٣)

كتاب مقاصد الفلاسفة :

مطبوع بالعربية [سنة ١٣٣١ هـ] وترجم منها الى اللاتينية
القسم الخاص بالمنطق ، وفي ١٥٠٦ م طبعه [دى كولونى] فى
البندقية (Venise) تحت اسم [منطق العرب وحكمتهم للغزالى] .
وتوجد الآن نسخة لاتينية بحزانتة السربون بباريز ، كما طبع
بأوروبا فى أواخر القرن التاسع عشر [١٨٨٨] ترجمة يبر
. Beer Georg

محتوياته :

أ) المنطق .

ب) الحكمة الإلهية .

ج) الحكمة الطبيعية .

وهو كتاب يتهىأ فيه الغزالى للوثوب على الفلاسفة والاغارة
على مبادئهم ، يشرح فيما (مقاصدهم) ويعرف بنظرياتهم
ليدحضها فى كتاب التهافت ، فكأن الكتاين جزآن من مؤلف
واحد ، الاول « مقاصد الفلاسفة » لبسط افكارهم وشرحها ،
وانثانى - أي التهافت - لنقدها وهدمها ، وهذا ما يشير إليه

المؤلف نفسه في مقدمة المقاصد :

« ... فسأكتفي بشرح مبادئهم ، مضيفاً إليهما الأدلة التي يثبتون بها أقوالهم ، ففاية هذا الكتاب هي شرح مقاصد الفلاسفة ، ولهذا اخترت له هذا الاسم . » ؛ ويقول كذلك : « حتى إذا فرغنا منه امتأنفنا له جداً وتشميراً في كتاب مفرد نسميه تهافت الفلاسفة » .

☆☆☆

(٤)

إن مؤلفات الغزالي كثيرة جداً ، وقد قال بعضهم إنها أكثر من ١٣٠ مصنفاً ، لكن قد شك المؤرخون في صحة نسبة الكثير منها إلى أبي حامد .

ومن أهم كتبها التي لم يطعن في صحتها له - على ما أعرف - :
أيها الولد !

كتاب في الاخلاق [ومن الغريب أن الدكتور زكي مبارك لا يعتمد عليه في دراسة الاخلاق عند الغزالي ، فلم يادكتور ؟]
مطبوع ومترجم للامانية والانجليزية ، ويحتوي على نصائح تظهر الغزالي بمظهر الرجل العملي الذي كل همه في العمل ، منها :
« لو قرأ رجل مائة الف مسألة علمية عليها وتعلّمها ولم يعمل

بها لا تفيد إلا بالعمل .

العلم شجرة والعمل ثمرتها، ولوقرات العلم مائة سنة، وجمعت
الف كتاب، لا تكون مستعداً لرحمة الله إلا بالعمل .

العلم بلا عمل جنون، والعمل بلا علم لا يكون عملاً .
اجعل الهمة في الروح، والهزيمة في النفس، والموت في
البدن .

☆☆☆

الدرّة الفاخرة في كشف علوم الآخرة :

مطبوع و مترجم إلى الفرنسية بقلم Lucien gautier

ليسيان جانتى) .

وهو من طراز المظنون به على غير أهله (الاصغر) .

☆☆☆

جواهر القراءان :

طبع طبعين بمصر، إحداهما سنة ١٣٢٩ بمطبعة كردستان،
والثانية بالمطبعة الرحمانية، وتوجد نسخة خطية في المتحف
البريطاني وأخرى في مكتبة برلين، ويقع في ٦٦ ص من
الحجم الصغير .

قسمه الى علوم واعمال ، وأكثره سرد لآيات قرآنية .

*

* *

قيل إن آخر تأليف الغزالي هو (منهاج العابدين) وهو صغير الحجم ، جمع فيه ما في ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين (انظر التعليق الاول ، ص ٣ - ٤ من شرح الكافي على عقيدة أهل السنة ، مطبعة النيل بمصر) وراجع كذلك كشف الظنون .

رتبه الغزالي على سبع عقبات : الاولى عقبة العلم ، الثانية الثوبة ، الثالثة العوائق ، الرابعة العوارض ، الخامسة البواعث ، السادسة القوادح ، السابعة الحمد والشكر .

وقد ترجمه الى التركية إلياس عبد الله المعروف بنهاني بعد أن أضاف إليه مسائل العبادات الخمس .

*

* *

(٥)

جان جاك روسو .

روسو (١٧٧٨ - ١٧١٩) J. J. Rousseau كاتب مبرز في

الآداب الفرنسية ، يعد هو وفولطير فرسي رهان القرن الثامن عشر

ازداد بحنيف من أب ساعتي .

انتقلت أمرت، قرنا قبل ازديادلا، من فرنسا الى سويسرة
فراراً بعبادتها الدينية، (لأنها كانت من اتباع المصلح الديني كالفان).
لكنه أبولا منذ صباه حب العلم، حيث كان يقضى معه الساعات
الطوال في المطالعة، خصوصاً كتب التاريخ.

انتقل في بعض الوظائف الصغيرة، وأخيراً في ١٧٥٠ أظهر
للجمهور محاولة في فن الموسيقى (نوطة بالاعداد).

ثم اتفق أن أعلنت في فرنسا مسابقة ادبية حول
الموضوعين الآتين :

(١) هل تقدم الفن والعلم أعان على فساد الأخلاق، أم على
صلاحها ؟

(٢) ما هو أسمى عدم التساوي بين أفراد الإنسان ؟

شارك روسو في هاتين المسابقتين، فراجت كتابته بين جميع
الامساك لمدوبة أسلوبة ولاً فكارة الغريبة، فقد تحامل على المدينة
وعلى الحياة في الوسط (فكل الشر الذي يلحق المرأ، او يصدر
عنها يأتي من الوسط الذي يعيش فيه)، هذا الفكرة هي
أساس مذهبه .

بعد هذا نشر قصته في الحب *La Nouvelle Héloïse* ،
وحدثنا اجتماعيا : العقد الاجتماعي *Le contrat Social* و (إميل)
في التربية (Emile) .

على أنه في هذا الوقت - وقد اتته الشهرة - اضطر لأن
يلتعد ، ثمانى سنوات ، في سويسرة وبريطانيا العظمى من أجل
ما أحدثته من ضجة أفكاره المخالفة لما كان عليه الناس ،
فكانت سنوات بؤس ومشؤم عليه .

وبعد ذلك كتب اعترافاته الشهيرة ، وكتابا آخر [أحاديث
مباح من عزل] *Propos d'un promeneur solitaire* .

للدكتور محمد حسين هيكل كتاب عربى في جزأين ، عن
حياله هذا الرجل وآثاره .



كتاب تهافت الفلاسفة

وله كتاب شهير «تهافت الفلاسفة» طبع بالقاهرة سنة ١٣٠٣ (١)
مع تهافت التهافت لابن رشد وكتاب خوجه زاد.
اشتهر هذا الكتاب بأوروبا منذ القرون الوسطى بفضل
ترجمة عبرانية ، فقد عرفه [ليل ريمون Lulle Raymond]
وعنى به في العصر الحاضر العلماء ومؤرخو الفلسفة أيما اعتناء .
لقد اعتمد [سمولديرز Schmolders] على الصيغة
اللفظية للتهافت فقال (دون ان يعرف الكتاب) : إنها تدل على
التفاعل ، ففسرها بـ « التفنيد المتبادل بين الفلاسفة » ظناً منه أن
غرض الغزالي أن يقابل أقبيسة المذاهب المتناقضة ، وأن يظهر
إنها تتداحظ .

١ أي ١٨٨٤ م ، وذلك بالمطبعة الاعلامية ، وطبع بيومباي سنة
١٨٨٦ ، ومسات أخرى بمصر (١٩٠١ ، ١٩٠٢ ، ١٩٠٣ ، ١٩٠٤) .
وتوجد ترجمته بالعبرية و ١٧ نسخة خطية موزعة على أكبر الخزائن .

أما (مونك Munk) فقد أوضح أن هذا مجرد ادعاء، وفهم أن الغزالي أخذ على نفسه في هذا الكتاب أن يحطم مبادئ الفلسفة بنقد عام. ولم يحاول «مونك» أن يشرح معنى فيلسوف في «تهافت الفلاسفة» ، وزاد هذا العالم قائلاً :

« ان كل قيمة الغزالي بالنسبة إلينا منحصر لآفي ارتيابه ، وهذا

ما يجعل له مكانة في تاريخ فلاسفة العرب . »

ويقول (رونا Renan) : « حينما أصبح الغزالي صوفيا تصدى لإثبات عجز الفكر الكلي ، ولجعل عمدة الدين هي الشك ، هاتم العملية الحاسمة التي منحت أفكار اولئك الذين كثرت جرأتهم بقدر ما قلت حكمتهم » .

إن كل هذه الآراء ليست على صواب ، فالحقيقة هي ان كتاب تهافت الفلاسفة انتقاد موجه ضد مدرسة الفلاسفة [بحصر المعنى] ، فيمكننا ان نترجمه :

ب « بلادة أو لغو الفلاسفة » .

محتويات الكتاب :

في هذا الكتاب مقدمة (١) وعشرون مسألة ، الغاية منها

(١) بل بالكتاب أربع مقدمات ، كما يعلم بالوقوف على ذلك في طبعات

دحض الآراء الفلسفية الفاسدة، وإظهار ان لافائدة في الآراء
الآخري الصائبة.

فالمسألتان الاوليان تبطلان أزلية العالم وابديته، والرابعة
في تمجيز الفلاسفة عن الإتيان بأدلة يثبتون بها وجود صانع العالم.
ومن جملة الآراء التي فندها قولهم (أي الفلاسفة): ان
الاول لا يعلم الجزئيات، (٢) بخلاف نفوس السماوات، فهي تطلع
على جميع الجزئيات الحادثة في هذا العالم، (٣) وان السماء حيوان
متحرك بإرادته. (٤) والنفوس الإنسانية (٥) مرمدية يستحيل

مختلفة، فانظر مثلاً آخر طبعة (المطبعة الكاثوليكية ببيروت) وهي أجمل
طبعة متقنة، اعتنى بتصحيحها والتعليق عليها الآب (Maurice Bouyges)
موريس بويج) سنة ١٩٢٧ م وجعل لها فهرس مختلفة.

(٢) هذه هي المسألة الثالثة عشر، يحاول فيها أبو حامد أن يحبط
قولهم بأن الله تعالى لا يعلم الجزئيات المنقسمة بانقسام الزمن الى الكائن
وما كان وما يكون.

(٣) هذه المسألة السادسة عشر، يدحض فيها قولهم ان نفوس السماوات
مطلعة على جميع الجزئيات الحادثة في هذا العالم، وأن المراد باللوح
المحفوظ نفوس السماوات، وان انتقاش جزئيات العالم فيها يضاهي انتقاش
المحفوظات في القوة الحافظة المودعة في دماغ الانسان.

(٤) هذه هي المسألة الرابعة عشر.

(٥) هذه هي المسألة التاسعة عشر.

عليها العدم ، وكذلك إنكارهم للبعث ^(١) ورد الارواح إلى أجسادها .

ومن الآراء المسلمة التي يرى الغزالي أنهم عاجزون عن إثباتها بأدلتها :

أن الله هو خالق العالم ، وإن روح الانسان جو هو قائم بنفسه .
إن الفلاسفة ، في نظره ، مجبورون على الوصول (تحت قيادة أقيستهم نفسا) إلى الإلحاد وإلى مذهب المادة والهيولى .

أما من حيث مزاوله التعقل ، وإقامة براهين من فلسفة المدرسة

التقليدية الجدلية ، فإن هذا الكتاب في الدرجة الاولى من

المتانة ، فالغزالي ماهر في هذا الفن الذي أراد ان يظهر بطلانه ،

ولكن الشيء الذي يهمنا هو ان نعرف ، هل يريد الغزالي ان

ينقد بعض آراء المدرسة الجدلية التقليدية التي يرى أن فيها

غلطا ، أم يريد ان يظهر أن العقل نفسه عاجز ومخطر . فيظهر

«١» هذه هي المسألة العشرون ، وقد عنوانها الغزالي هكذا : مسألة

في إبطال إنكارهم للبعث الاجساد ، ورد الارواح الى الابدان ، ووجود

النار الجسمية ، ووجود الجنة والحدور العين وسائر ما وعد به الناس ،

وقولهم ان كل ذلك أمثلة ضربت لعموم الخلق لتفهيم ثواب وعقاب

روحانيين ما أعلى رتبة من الجسمية .

من إسهاب الغزالي في الانتقادات ، وتوجيهها ضد النقط الاسامية في المذهب التقليدي المدسى الجدلي ، أنه يقصد الفكرة الاخيرة .
ويجب ان نفحص أيضا المسائل المتعلقة بقدم العالم وأبدية
واتساعه ، وكذلك سياق الاسباب بلا انتهاء ، والعدد اللانهاى (١)
(وقد ظن ان كل الايضاحات لاتبدي نفعاً ، وانه يمكن ان يخرج
بنتيجة تؤيد الطرفين المتناقضين ، ومن هنا يكون قد سبق
الفيلسوف (كانط) (٢) في هذه النظرية .

«١» انظر فصل : اللانهاية .

«٢» كانط Emmanuel Kant [١٧٢٤ - ١٨٠٤] فيلسوف ألماني ،
له ثلاثة مصنفات :

أ [انتقاد العقل المجرد .

ب [نقد العقل العلمى .

ت [انتقاد الحكم .

وهو فلكى رياضى ، تعلم فلسفة لىبنيز الالماني Leibniz ،
والفرنسى روسو J. J. Rousseau .

وفلسفة تدور حول النقط الاتية :

أ [ماذا يمكننا أن نعرف ؟

ب [ماذا يجب أن نعمل ؟

ت [ماذا نستطيع ان نأمل ؟

وتتلخص في هذه الجملة : فلسفة تعتمد على الشك في حقائق الاشياء
وعلى اليقين في الاخلاق ، والنية أساس نظريتها [فى الاخلاق] على
ان من درس هاتى النظرية يجد أنها تتلخص فى الحديثين الشريفين :
« النية أحسن من العمل » و « إنما الاعمال بالنيات » .

إنه لا يقول هذا تماماً ، لكن ضربه من الاقتناع ، بسياق الادلة وإعادتها على نمط آخر ، والاحتجاج بها في الوجوه المتباينة ، محصيا للفرق ، مظهرا للمضادة بين الحالات المختلفة ، هو الذي يجعلنا نرجح أنه مندفع نحو إثبات القضية وتأييدها ، بقدر ما هو مدفوع نحو تقابلها ونفيها ، حتى إننا نشعر بالتناقض القوي .

فلما الحق إذن ان نعتبر هذا الكتاب كبا كورة نيرة ، ومحاولة

قيمة في انتقاد العقل الصرف .

لقد تزعم ابن رشد الدفاع عن المنطق وأقيسة فلسفة المدرسة التقليدية الجدلية ، فأخذ ينتقد (تهافت الفلاسفة) صفحة صفحة ، في كتاب سماه (تهافت التهانت) (١) وهو وإن كان يعترف بما وقع لابن سينا من اغلاط ، فإنه في الجملة يدافع عنه ، ويدعى ان آراء الفلاسفة متينة جداً ، وانها تركز على حجج

« ١ » فرد عليه من حيث الافكار ، ومن حيث الطريقة المتبعة في البحث ، فأخذ يرد على الفلاسفة عموماً ، لان هذه طريقة عوجاء ، إذ يجب تحديد الموضوع ؛ كما يجب تقسيم المسائل : يبدأ الباحث بأصغر مسألة ، ثم منها ينتقل إلى ما بعدها ، بصورة غير شاملة ؛ وهكذا يصعد من السهل إلى الصعب . وهذه الطريقة التي أشار إليها ابن رشد ، وطبقها هو نفسه في « تهافت التهافت » ، هي احد القوانين الاربعة التي وضعها (ديكارت) « في حديث المنهج » - انظر تفصيل ذلك في فصل : مذهب الشك - .

يقينية، لكن ابن رشد لم يبلغ كعب سابقه الشهيرين (الغزالي وابن
سينا) في هذا الميدان ، كما انه لم يصل في آرائه فيما وراء
الطبيعة الى مرتبتهما ، وتنقص اسلوبه المبتانة الهندسية التي
يصطبغ بها اسلوب ابن سينا ، وكذلك تنقصه السلاسة الظريفة
التي يتحلى بها اسلوب أبي حامد ، ومن جهة اخرى فإن
نظريته ابن رشد ليست في نفس الموضوع ، ويظهر انه كان
يهتم (في مختلف المسائل التي كانت مطروحة على بساط
البحث) بمعرفة الرأي الحقيقي لأرسططا ليس ، اكثر من اهتمامه
بوضع اقيسة قائمة بذاتها ، غير ان له تحليلات ذلقة ، وملاحظات
تاريخية توجب المبالاة ، ويمكننا ان نؤيد ما قلنا بهذا السطور
من كتاب (تهافت التهافت (١)) : « فإن قيل : فما تقول أنت
في هذا المسألة ، وقد ابطلت مذهب ابن سينا في علة الكثرة ،
فما تقول انت في ذلك ؟ فإننا قد قيل : ان فرق الفلامفة كانوا
يحييون في ذلك بواحد من ثلاثة أجوبة :

(ا) ان الكثرة انما أتت من قبل الهيمولي .

(ب) انما جاءت من قبل الآلات .

(ت) انما هي من قبل الوسائط .

وحكى عن آل ارسطو أنهم صححوا القول الذي يجعل
السبب في ذلك المتوسط ، قلت : (١)

« ان هذا لا يمكن الجواب فيه ، في هذا الكتاب ، بجواب
برهانى ، ولكن لسنا نجد لـ أرسطو ولمن شهر من قدماء المشائين
هذا القول الذي نسب اليهم ، الا (لفوفوريوس Phorphire de Tyr
الصورى) صاحب مدخل علم المنطق ، والرجل لم يكن من
حذاقهم . والذي يجري عندي على اصولهم ، ان سبب الكثرة
هي مجموع الثلاثة ، أعنى المتوسطات والاستعدادات والآلات ،
وهذه كلها قد بينا كيف تستند إلى الواحد وترجع اليه ، اذا كان
وجود كل واحد منها بوحدة محضته هي سبب الكثرة ، وذلك
انه يشبه ان يكون السبب في كثرة القول المفارقة ، اختلاف
طبائعها القابلة فيما تعلق من المبدأ الاول ، وفيما تستفيد منه الوجدانية
التي هي فصل واحد في نفسه ، كثيرة لكثرة القوابل له ، كالحال
في الرئيس الذي تحت يده رياسات كثيرة ، والصنائع التي
تحتها صنائع كثيرة ، وهذا نفحص عنه في غير هذا الموضوع ،

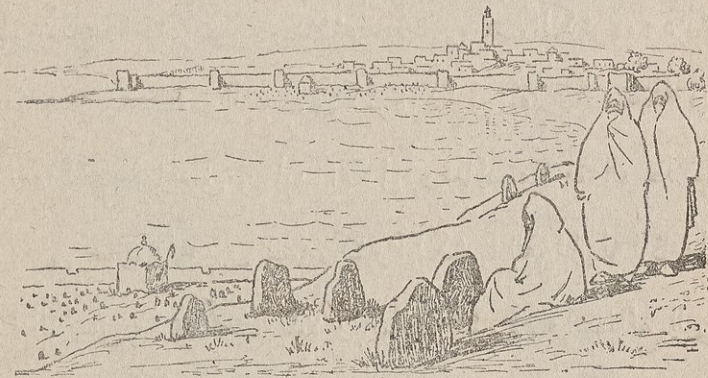
(١) « ان مسألة اصل الكثرة في الاحياء ، وكيف ان الكثرة تحصل ناشئة
عن الوجدانية دون ان ينقصها ، لمن أهم المسائل في الفلسفة التقليدية
المدرسية بالشرق » [تعليق المسيو كارا] .

فإن تبين شيء منه والارجع الى الوحي ، واما ان الاختلاف يقع
من قبل الاسباب الأربعة فبين ، وذلك ان اختلاف الافلاك
يكون من قبل اختلاف تحررها او اختلاف صورها وموادها ،
ان كان لها مواد ، وفعالها المخصوصة في العالم . »

*

* *

لم تقف المعركة عند هذا الحد ، فقد جاء ، بعد هؤلاء الرجال
الثلاثة ، خوجه زادة فصنف بأمر من محمد الثاني الفاتح ، تهافتا
ثالثا ليهدم كتاب ابن رشد ، وينتقم لعلم الكلام ، وليظهر مرة
أخرى ضرورتنا إلى الإيمان ، وان العقل ضعيف (١) .



« ١ » خوجه زادة باحث تركي توفي سنة ١٩٣ هـ .
كما تصدى الى الخوض في هذه المعركة الجدلية ، علاء الدين بن علي
الطوسي ، فوضع كتاباً سماه (الذخيرة في المحاكمة بين تهافت الفلاسفة)

على هامش كتاب تهافت الفلاسفة

يمكننا أن نحصر الفكرة الأساسية لكتاب تهافت الفلاسفة في قولنا: ان الغزالي يرى استحالة وصول المرء للحقائق عن طريق العقل، لان العقل ضعيف عاجز، وان الآراء الفلسفية ضالة مضللة لا تركز إلا على شفير هيار، وان الفلاسفة كلهم خبط ولغو.

لننظرية الاولى (انتقاد الحكم العقلي) أنصار من أقطاب الفلسفة الأوروبية الحديثة مثل كانط (Kant) كما رأينا. واستاذ ديفر هيوم David Hume (فيلسوف ومؤرخ إنجليزي ١٧٧٦ - ١٧١١) ، فالغزالي يحلل موضوعا من الفلسفة في حين أنه يحاربها فهو يعتمد على مبادئ فلسفية في تهديم الفلاسفة، يقول في كتاب المنقذ من الضلال:

«... فالأنبيااء أطباء أمراض القلوب، وإنما فائدة العقل

وتصرفه أن عرفنا ذلك ويشهد للنبوة بالتصديق، ولنفسه بالعجز

عن درك ما يدرك بعين النبوة ، واخذ بأيدينا وسألهما اليها تسليم
العميان الى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيرين الى الاطباء المشفقين .
والى ههنا مجرى العقل ومخطاها ، وهو معزول عما يعد ذلك الا
عن تفهيم ما يلقى الطيب إليه . فهذا موقف سلبى محض ،
لكنه فلسفى بالرغم عن الغزالي (١)

☆☆☆

(١) ان القاضى أبا الوليد بن رشد ، فى زمرة من الفلاسفة ،
يعتقد ان أبا حامد انما يقول [فى كتابه تهافت الفلاسفة] بقصد
ما ليس فى فكره ، فزعم ان ثمة رسالته [مقاصد المقاصد] شرح
فيها ابو حامد ما يرمى اليه من حملته على الفلاسفة .
ويظهر لى انه تظاهر بالحملته على الفلاسفة إرضاء لاهل السنة ،
ونحن نعلم ان السنيين كانوا اذ ذاك اقوياء (٢) ، وان الغزالي

(١) فهو كما يقول عنه مكارا (انظر ص ١٦٦ من هذا الكتاب :
« ماهر فى هذا الفن الذى اراد ان يظهر بطلانه » .

(١) انظر كيف يصف ابن رشد هذا التلون فى ص ١٩ من كتابه
فصل المقال « مطبعة الآداب والمؤبد بمصر سنة ١٣١٧ » : « .. إنه لم
يلزم مذهبا من المذاهب فى كتبه ، بل هو مع الاشاعرة اشعري ، ومع
الصوفية صوفى ، ومع الفلاسفة فيلسوف ، وحتى إنه كما قيل :
يوما يمان ، إذا لاقيت ذايمين ❁ وإن لقيت معديا فعد نانى » .

كان يبخل بكتبه على [النار] وبسمعه على [المحاربة] (١).
وهاء عبارات يصرح فيها ابن رشد بشكها في اخلاص الغزالي
فيما ادعاه في التهافت :

« فتعرض ابى حامد الى مثل هذه الاشياء ، على مثل هذا
النحو من التعرض لا يليق بمثلها ، فيانه لا يخلو من احد امرين :
(١) إما انه فهم هذه الاشياء على حقائقها ، فساقها هاهنا على
غير حقائقها ، وذلك من فعل الاشرار .

(٢) وإما انه لم يفهمها على حقيقتها ، فتعرض الى القول فيما
لم يحط به علما ، وذلك من فعل الجهال .

والرجل يحل عندنا عن هذه الوصفين ، ولكن لابد للجواد
من كبوة ، فكبوة ابى حامد هي وضعه هذا الكتاب - أي تهافت
الفلاسفة - ولعل طراً إلى ذلك من اجل زمانه ومكانه » .

فالتبوغ منذ وجد وهو في حاجة الى انصار اقوياء ، افرادا
واحزابا ، ليحيطوا بمشعلهم فيردوا عنه الزوابع من الإطفاء ،
ويعينوا على نشر نوره ، وقد فطن لهذا أبو حامد منذ بدأ فكره
يلمع في ميدان المعرفة والمناظرة ، فانكمش تحت جبهة نظام الملك

(١) وقد رمى بالزندقة قبل ذلك .

الوزير الشهير ، كما تدثر بأذيال الخلفاء والوزراء ، ابو يوسف الكندي وابو نصر الفارابي والشيخ الرئيس ابن سينا ، فلا بد للنبوغ من (مصين Mécène) كما يقول الافرنج ، أو من رشيد ومأمون كما ينبغي ان نقول نحن .

☆☆☆

(٢) كما لا يبعد ان يكون الغزالي مر ببعض ازمت الارتياب ، فاندفع تحت وطأتها الى تسطير هجومات على الفكر والمنطق ، ثم بعد ان هدات ثورته وتأججاته عمل على تهديم ماصدر منه اولا . وهذا الراي هو الذي يبرر كتابة الغزالي (بعد انتهائه من كتاب التهافت) بعض الرسائل والمصنفات ينتقد فيها مقدمه في تهافت الفلاسفة ، وعودته الى تأييد مبادئ الفلسفة ، وبناءه من جديد ما عمل على تهديمه من قبل .

وكثيرا ماتأتى الازمت الروحية فجأة ، ثم تنصرف فجأة ، ومثل ذلك يحصل احيانا حتى في الازمت الجسدية او الاقتصادية في الشعوب : « فكثيرا مانلاحظ اننا في الشهر الماضي حكمنا على شيء بكذا ، وانا حكمنا كان مطبوعا بحالة فكرية خاصة ، واننا الآن لانرى مثل ذلك الحكم ، وهكذا تتبدل من سنة لآخرى

نظريا تنافي الاشياء ، فما كان وهما يصبح حقيقة ، وما كان مهما يضحى لاقيمة له ، دون ان نعرف لهذا الانقلابات من سبب » عن كتاب (Text-Book) في قواعد علم النفس لـ (وليام جيمس W. James) ويقول (برجسن Bergson) في هذا المعنى ، بعد ان فرق الانسان الى شخصين ، الشخص العميق Le moi profond الذي يتجلى في عالم الافتطار ، والشخص السطحي Le moi superficiel الذي ميدانه العقل واللسان (١)

« بينما الشخص السطحي يتركب من افكار فائرة لا حركتها فيها ودائمة التماثل بعضها مع بعض ، بينما ترى الحركة صفة ذاتية في الشخص العميق ، ومقر هذا التغير الذي لا ينقطع ليس في المرور من حالة الى الحالة التي بعدها فحسب ، بل في التحول المستمر مل لهذه الحالات نفسها . »

☆☆☆

(٣) من بين العشرين مسألة [التي تقدم الكلام (٢) عليها] تصدى على الخصوص لدحض ثلاث ، وهي :

أ [قول الفلاسفة ان العالم قديم] وهي المسألة الاولى

(١) انظر إيضاح هذه المسألة في بضع نوان مع الدكتور زكي مبارك

(٢) انظر الفصل السابق

والثانية ، اى ازالة العالم وأبديته]

(ب) قولهم إنه تعالى لا يعلم الجزئيات الحادثة من الاشخاص
[وهى المسألة الثالثة عشرة] .

(ج) إنكارهم بعث الاجساد وحشرها [المسألة العشرون] .

فما هو السرفى امتياز هذه النقطة على غيرها ؟

ان لهذه المسائل الثلاث مساسا مباشرا بالدين الاسلامى ابرز
مما فى غيرها ، وفي هذا التخصيص نتيجتان ربما قصد هما الغزالي .

الاولى : ربح العامة الى جانبى ، لانه اخذهم من الناحية

الدينية ، اى انه ضرب على وترهم الحساس .

الثانية : جلب اهل السنة وتكثيلهم حوله ، لانه حارب

اعداءهم ، « وعدو العدو صديق » .

هذا فرض من الفروض ، وليس بحال ان يكون صحيحا ،

فالغزالي انسان قبل كل شىء ، يحوز فى حقه من المحامد

والمساوى ما يحوز فى حق بقية الناس ، وليس بعيد كذلك ان

يكون هذا الفرض خطأ ، ولكن التفكير الحر والبحث العلمى

يفرضان على مثل هذا التصريح ، مما أرى من مثل هذه الفروض .

*

* *

(٤) فإذا صح ما قدمت يكون كل ذلك صادرا عن دهاء وسياسة أبي حامد : « أليست قيمة العقل في القدرة على لبس لكل الظروف ما يناسبها » كما يقول (Paulhan بوهن) في المجلة الفلسفية [ديسمبر ١٨٨٨] ؟ أما من الناحية النفسية ، فيظهر لي أن هناك باعشرين آخرين دفعوا بالغزالي إلى تأليف [كتاب تهاافت الفلاسفة] ثم إلى البحث على الخصوص في تلك النقاط الثلاث ، أذكر أيضا هذين الباعشرين حبا في الوصول إلى الحقيقة العلمية التي هي فوق الافراد ، والتي يجب ان يكون التعصب لها فوق كل تعصب لسواها ، على أن لا أثبت . ولا أنفي ، وهما :

(أ) حب الظهور والشهرة ، وهو شيء جبلي في الانسان

(ب) الحسد : « وقد يما كان (١) في الناس الحسد » .

حاول أبو حامد أن يظهر بالتغلب على الفلاسفة ، من أرسطو

المعلم الأول إلى معاصريه ، (٢) كى يقول الناس [الاشاعرة

(١) عمر بن أبي ربيعة .

(٢) « فقد نرى ان ابا حامد قد غلط على الحكماء المشائين فيما

نسب اليهم من انهم يقولون انه قدس وتعالى لا يعلم الجزئيات اصلا ، بل يرون انه تعالى يعلمها بعلم غير محانس لعلمنا بها . . . » ابن رشد ،

فصل المقال ص ١١ .

والعامة منهم على الاخص]، إنه حارب المتكلمين والفلاسفة في ميدانهم
فانتصر عليهم [ونشوة هذا التغلب لا تكلف]

ثم تعرض بصفة خاصة الى سابقه الحكيمين الفارابي وابن
سينا ليسفه اقوالهما ، وبالطبع ليستقطا من أعين مقدريهما [لصالح
شهرته] ، لأنهما امتازا قبله بالحكمة وبعد النظر ، فالتنافس
هو الذى دفع به إلى منازعتهما البقاء على صفحات تاريخ الخلود
في التاريخ الاسلامى :

« ... ثم المترجمون لكلام ارسططاليس لم ينفك كلامهم
عن تحريف وتبديل محوج الى تفسير وتأويل ، حتى أثار ذلك
ايضائعا بينهم ، واقومهم بالنقل والتحقيق من المتفلسفة الاسلامية
الفارابي ابو نصر وابن سينا ، فلنقتصر على ابطال ما اختاراه ورأيا
الصحيح من مذهب رؤسائهم في الضلال ، فإن ما هجرنا
واستكنفنا من المتابعة فيه لا يتمارى في اختلافه ، ولا يفتقر
الى نظر طويل في ابطاله ، فليعلم أنا مقتصرون على رد مذاهبهم
بحسب نقل هذين الرجلين كيلا ينتشر الكلام بحسب انتشار
المذهب » . [فقرات من المقدمة الاولى لكتاب تهافت الفلاسفة]

لم تكن حزازات الحسد لتقف به عند هذا الحد ، من جمل الحملة موجهة بالاخص ضد هذين الحكيمين ، بل عمل على تغريقهما في وابل من سخط العامة ولعنات الدهماء ، فكفرهما في جملة من كفر من الملاحدة والمتفلسفين ، انظر مايقول في خاتمة الكتاب :

« فان قال قائل : قد فصلتم مذاهب هؤلاء ، أفقطعون بكفرهم ووجوب القتل لمن يعتقد اعتقادهم ؟ (قلنا) تكفيرهم لابد منها في ثلاث مسائل [احداها] مسألة قدم العالم ، وقولهم ان الجواهر كلها قديمة . [والثانية] قولهم ان الله تعالى لا يحيط علما بالجزئيات الحادثة من الاشخاص . [والثالثة] في انكار بعث الاجساد وحشرها .

فهذه المسائل الثلاث لا تلائم الاسلام بوجه ، ومعتقدها معتقد كذب الانبياء ، وانهم ماذكروا على سبيل المصلحة تشيلا للجاهل الخلق وتفهيما ، وهذا هو الصريح الذي لم يعتقد احد من فرق المسلمين ، فأما ما عدا هذه المسائل الثلاث من تصر فهم في الصفات الإلهية واعتقاد التوحيد فيها ، فمذهبهم قريب من مذاهب المعتزلة ، ومذهبهم في تلازم الاسباب الطبيعية هو

الذى صرح المعتزلة به في التولد ، وكذلك جميع ما نقلناه عنهم
قد نطق به فريق من فرق الاسلام ، الا هذه الاصول الثلاثة .
فمن يرى تكفير اهل البدع من فرق الاسلام يكفرهم ايضا به ،
ومن يتوقف على التكفير يقتصر على تكفيرهم بهذه المسائل .
واما نحن فلسنا نؤثر الآن الخوض في تكفير اهل البدع وما
يصح منه وما لا يصح كيلا يخرج الكلام عن مقصود
هذا الكتاب . (١)

*

* *

دافع القاضى ابو الوليد . عن الفاربى وابن سينا ، وعن
الفلاسفة على العموم ، وتصدى لمناقشة ابى حامد في هذه
المسائل الثلاث من جملة مناقشيه فيه ، لكننى ألاحظ هنا (على
ما يقول حجة الاسلام في خاتمة الكتاب) ملاحظة صغيرة فاتت

(١) للدكتور زكى مبارك الاخلاق عند الغزالى ص ١٢١) رأى
سديد حول اختلاف آراء الغزالى في كتبه باختلاف سنه وصحته : « قد
وضع مؤلفاته في ظروف مختلفة ، كان في بعضها يحكم العقل والشرع ،
وكان في بعضها يساير الصونية في اوهامهم ووساوسهم . والرجل في
الواقع معذور ، فقد كان يؤلف في اوقات لا تصلح مطلقا للتأليف ،
لانه يشترط في المؤلف ما يشترط في القاضى من الصحة وهدوء البال » .

ابن رشد على ما يظهر ، وهي ان الغزالي يصرح بأن هذا « النقط
الثلاث » تجر الى الكفر لانه لم يعتقدوها احد من فرق المسلمين ،
بخلاف النقط الاولى « السبعة عشر » فقد قال بها بعض
المذاهب الاسلامية .

فمعنى هذا ان كل فكرة لم يرها مذهب من مذاهب
الاسلام فهي غلط بل كفر ومعتقدها كذب الانبياء « ومثل
ذلك الاصول الثلاثة » .

كما ان كل فكرة تقدم لفرقة من فرق الاسلام ان اعتقدتها
« او اعتقدت » ايقاربها « فليست بكفر ، وانما صاحبها من اهل
البدع » ومثل ذلك : المسائل السبعة عشر » .

فهذا حكم جزييف لا يتفق والمنطق !
وفي « المنقذ من الضلال » فصل كذلك في تكفير
الفلاسفة وذكر اصنافهم « من ص ١٠ الى ص ٢٠ »

☆☆☆

ينقل الامتاذ لطفى جمعه ، في كتابه تاريخ فلاسفة الاسلام
ص ١٧٣ ، ان القاضي ابن رشد قال عند فحصه لكتب الغزالي :
« ... ثم قال (اى الغزالي) في كتابه « جواهر القراءان » ان

الذى اثبتته في كتاب تهافت الفلاسفة هي اقاويل جدلية ، وان الحق انما اثبتته في (المضمون به على غير اهلها) . غير ان الاستاذ جمعهم لم يشر الى الصفحة التي نقل منها عن ابن رشد هذا التصريح المهم للغزالي .

وقد رجعت الى كتاب جواهر القراءان بالنسخة العربية (الطبعة الثانية سنة - ١٣٥٢ هـ ١٩٣٣ م بالمطبعة الرحمانية) فلم اعثر على نفس هذا التصريح باللفظ ، ولكن وجدت فقرتين تشيران الى ما يقرب من هذا المعنى :

الفقرة الاولى « ص ٢١ » يقول أبو حامد :

« ... والثاني هو محاجة الكفار ومجادلتهم ، ومنه يتشعب علم الكلام المقصود لرد الضلالات والبدع وإزالة الشبهات ، ويتكفل به المتكلمون ، وهذا العلم قد شرحناه على طبقتين ، سميّا الطبقة القريبة منها الرسالة القدسية ، والطبقة التي فوقها الاقتصاد في الاعتقاد ، ومقصود هذا العلم حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة ، ولا يكون هذا العلم ميلا بكشف الحقائق ، وبجنسه يتعلق الكتاب الذي صنفناه في تهافت الفلاسفة »

الفقرة الثانية « ص ٢٤ » يقول :

« ... ويتلوه في الشرف علم الآخرة ، وهو علم المعاد ، كما ذكرناه في الاقسام الثلاثة ، وهو متصل بعلم المعرفة ، وحقيقته معرفة نسبت الى الله تعالى عند تحققه بالمعرفة . أو مصيرة محجوب بالجهل ، وهذه العلوم أربعة : أعنى علم الذات والصفات والافعال ، وعلم المعاد أودعنا من أوائله ومجامعه القدر الذي رزقنا منه ، مع قصر العمر وكثرة الشواغل والآفات ، بعض التصانيف لكننا لم نظهره ، فإنه يكل عنه أكثر الافهام ويستضر به الضعفاء ، وهم أكثر المترسمين بالعلم ، بل لا يصح إظهاره إلا على من اتقن علم الظاهر وسلك في قمع الصفات المذمومة من النفس ، وطرق المجادلة حتى ارتاضت نفسه واستقامت على سواء السبيل . فلم يبق له حظ في الدنيا ولم يبق له طلب إلا الحق ، ورزق مع ذلك فطنة ، وقادة ، وقريحة منقاداة ، وذكاء بليغا ، وفهما صافيا . وحرام على من يقع الكتاب بيده ان يظهره الا على من استجمع هذه الصفات ... » .

في الفقرة الاولى تصريح بالتهافت وبأن قصد الغزالي حاجة الكفار ومجادلتهم .

وبالثانية تلويح بمصنف من مصنفات الغزالي يظهر لى من

خلالها ان الكتاب المشار اليه هو المضمون به على غير أهله
[الأكبر]. اما على حسب رواية صاحب كتاب تاريخ فلاسفة
الاسلام فابن رشد يصرح بالمضمون به على غير أهله ، ويرجح
كذلك مصحيح «جواهر القراءان» للطبعة ، الرحمانية، ان يكون
ذاك المصنف هو المضمون ، يقول في الفهرس ملخصا للفصل
[ص ١٦٩ رقم ١٨]:

«الفصل الرابع في كيفية انشعاب العلوم الدينية كلها من
الاقسام العشرة ... ويذكر شروط أهلية الطالب لمطالعة هذا
الكتاب ، ولعله يسمى المضمون به على غير أهله»

*

* *

لفيلسوف الاندلس ابن الطفيل تصريح مهم حول هذا
الموضوع في رسالة حي بن يقظان [ص ١٠ ، النسخة العربية
الفرنسية ، طبعة بيروت لليون جوتي Léon Gautier الطبعة
الثانية]: «.. وكتب أبي حامد ، فهو يحسب مخاطبته للجمهور
يربط في موضع ويحل في آخر ، ويكفر بأشياء ثم يستحلها ،
ثم إنه من جملة ما كفر به الفلاسفة ، في كتاب التهافت ، إنكارهم
لحشر الاجساد وإثباتهم انشا اب والمقاب للنفوس

خاصة (١) ثم قال في أول كتاب الميزان : إن هذا الاعتقاد هو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع. ثم قال في كتاب المنقذ من الضلال والمفصح بالاحوال : ان اعتقادا كاعتقاد الصوفية ، وأن أمره إنما وقف على ذلك بعد طول البحث. وفي كتبه من هذا النوع كثير يراه من تصفحها وأمعن النظر فيها وقد اعتذر عن هذا الفعل في آخر كتاب ميزان العمل (٢) ، حيث وصف أن الرأي ثلاثة أقسام :

- أ [رأي يشارك فيه الجمهور فيما هم عليه
 ب [ورأي يكون بحسب ما يخاطب به كل سائل مسترشد ،
 ج [ورأي يكون بين الانسان وبين نفسه لا يطلع عليه

(١) ولابن رشد [ص ١٠٠ ، كتاب فصل المقال طبعة ١٣١٧] : « (فإن قلت) : وإذا لم يجب التكفير بخرق الإجماع في التأويل ، إذ لا يتصور في ذلك إجماع ، فما تقول في الفلاسفة من أهل الاسلام كابى نصر وابن سينا ، فإن أبا حامد قد قطع تكفيرهما في كتابه المعروف بالتهافت ، في ثلاث مسائل : في القول بقدم العالم ، وبأنه تعالى لا يعلم الجزئيات ، وفي تأويل ما جاء في حشر الاجساد وأحوال المعاد ؟ [قلنا] : الظاهر من قوله في ذلك أنه ليس تكفيره إياها في ذلك قطعا ، إذ قد صرح في كتاب التفارقة ان التكفير بخرق الإجماع فيه احتمال . »

(٢) ميزان العمل يقع في ٢٠٠ ص [تقريبا] من الحجم الصغير وهو شبه تلخيص لكتاب إحياء علوم الدين .

الامن هو شريكه فى اعتقاده ... » .

مرحى مرحى لآبى بكر بن الطفيل ، انه وأيم الحق قد قال الحق ، فاحسن تلخيص لدراسته آثار الغزالي قد تضمنت هذه الجمل ، وهي وحدها كافية لان ترسل أشعة على الموضوع . ومن الذين لاحظوا كذلك على الغزالي تناقضه الامام ابن تيمية ، وقد اثبت ان أبا حامد تشكك فى مذهب الصوفية فى آخر عمره ، فأعرض عن تلك المبادئ وانكب على دراسة الحديث عليه يجد فيه ضالته . لكنه وبالإسف لم يكتب شيئاً حول هذا الطور الأخير من حياته ، والحل الأخير لبحثه عن الحقيقة .

☆☆☆

ان الغزالي متشكك ، ومن هنا كثرة تناقضه ، ومن ناحية

أخرى فيلسوف يخاف من الفكر العام ، وهذه الظاهرة تتجلى

حتى ، فى كتاب المنقذ من الضلال الذي يصرح فيه ، بل ، شذوذه

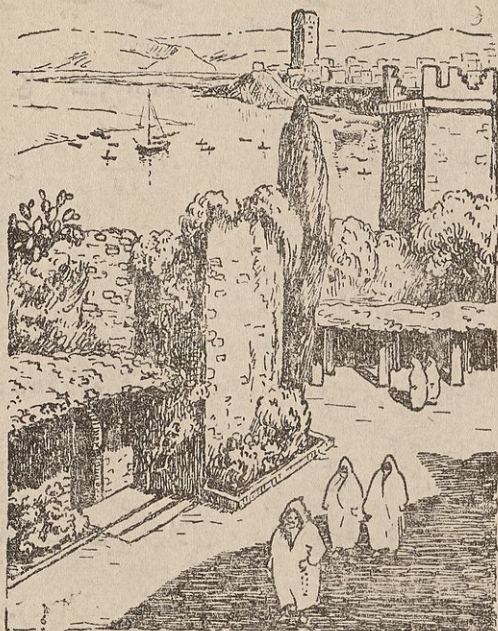
أنه يمت التفلسف ويستعين بالله ويبر كنه التصوف من شر الفلاسفة ،

يظهره [المنقذ] فيلسوفاً [بالرغم من] لان نفس هذا المصنف

نفس فلسفى ، حتى إن ما فيه من (تصوف) فمن تأثير مزدوج من

الدين والفلسفة (١) .

(١) ارجع الى فصل «على هامش الكتب الفلسفية»



الغزالي ومخاطرة باسكال

نشر ميكل أسين Miguel Asin (١) دراسة ممتعة عن الذين سبقوا باسكال (٢) في مسألة (المخاطرة)، وأعطى للغزالي المرتبة الأولى.

إننا نعرف هذه المسألة الذائعة الصيت التي أحدثت ضجة في أيامنا، فقام ضدها كثير من مفكرين آمن بينهم سبيلي بريدوم، (٢) وهي: يمكن أن يكون الدين تماما غير صحيح، لكن إذا كان صحيحا ولم نتبعه فإننا نتعرض لهلاك أبدي كالحلود في جهنم، مع أن الدين لا يحذرنا إلا من لذات محدودة في هذه الحياة، فالبصيرة ترشدنا إذن إلى التخلي عن ملاذ فانية للتحري من آلام خالدة، كيفما كان مقدار الضعف في حجج الدين، على شرط ألا تكون في أقل درجة من الضعف (٣).

(١) مستشرق إسباني معاصر.

(٢) انظر الكلام عليه في آخر البصل.

(٣) يأتي التعليق على هذا في آخر الفصل.

ان هذا القياس يوجد بالفقرات التي أتى بها (أسين) في عاطفة لا تقل كثيرا عن حدة الشرح الهندسي .

ونحن لا نجهل ان المفكرين كانوا في زمن باسكال يعملون على اكتشاف (Le calcul différentiel : عملية التغيرات الصغيرة التي تحصل في الاعداد)، وان مسألة الاعتبارات في الانهاية (١) في الكبير والصغير كانت ذات حظ مهم فيما كان يعتري فكر هذا المبقر من تشويش واضطراب في الناحية الدينية .

كان الغزالي يخصص بقياسه الأطباء وعلماء الطبيعة الماديين الذين ربما احتفظوا ببقية الشك — في إنكارهم وفيهم — قال (مامعنا لا بإجمال) :

إذا كان عندهم شك، فيكفيهم هذا الريب البسيط اين هدوا في هذا العالم، فلنفرض أن رجلا وجد طعاما لذيذا، لكنه خطر بباله اذ ذاك انه يمكن ان يكون مسموما أو أن حبة قدمسته بلسانها، فيانه يقينا يمتنع عن الاكل منه ليصون نفسه من خطر الموت، وفي نفس الوقت لا يحرمها الا من لذة ضئيلة، فكيف يمكن الإنسان العاقل ان يتردد لحظة أمام احتمال وجود نار خالدة؟ فهلا كان

(١) انظر فصل الانهاية .

(٢) انظر (Le Pari (Pensées et opuscules)

هنا للاحتمال الصرف مالبقين ؟ قال ابو العلاء مشيراً الى هذا القياس :

« قال المنجم والطبيب كلاهما : ❀ لا تبعث الاموات ، قلت : اليكما ، ان صح قولكما ، فليست بخاسر (١) ، ❀ أو صح قولي ، فالحسار عليكما .
(انظر كتاب احياء علوم الدين ، ج ٤ ص ٤٣ ، وكتاب الاربعين - للغزالي أيضاً -) .

انتهى كلام (م كارا) .

*

تعاليق^{*}

(١)

(٢) باسكال Blaise Pascal (١٦٦٢ - ١٦٢٣) رياضي

كبير وفيلسوف فرنسي .

مجموعة رسائله (Les Provinciales) التي يناضل فيها عن

(الجانسينيست Jansénistes) ضد اليسوعيين (Les Jésuites)

شهرة كبيرة .

(١) انظر التعليقات على هذا في اآخر الفصل .

اتبع أولا مذهب ديكارت ، وكان يفرق بين الايمان وبين العقل ، ويجذب الناحية الفكرية ، ثم تشيع لمبدأ (بور روابال (Port-Royal) أي لمذهب الجانسينيست ، فأوجد بابا للشك ، واصبح يرى أن الطبيعة الانسانية قبيحة ، وان العقل يقود للوبل إذا لم يوفق بالهام خارجي وإغاة إلهية (La grâce).

تقول أختها (جيلبيرت Gilberte) إنه اكتشف - دون أن يستعين بأي كتاب - الامس الأولى في هندسة أقليدس ، ولم يكن سنه إذ ذاك يتعدى الثانية عشر . وفي السادسة عشر من عمره كتب مصنف في حل بعض المشكلات العويصة في هذا العلم ، الشيء الذي نال به إعجاب اكبر المفكرين الفرنسيين في عصره وعند الثامنة عشر اخترع آلة تحسب بنفسها . وله اكتشافات مفيدة في الطبيعيات .

طبع بعد وفاته مصنف صغير ديني فلسفي ، يعد من أحسن ما كتب في الآداب الفرنسية ، تحت اسم (الافكار (Pensées et opuscules) وفي هذا المصنف توجد (المخاطرة) .

*

* *

(٢)

(٢) بریدوم Sully Prudhomme ولد ومات بباريز ١٩٠٧ - ١٨٣٩). شاعر مبدع، يعد من زعماء المدرسة البرناسية (L'école parnassienne) ويمتاز أسلوبه بدقت غريبة في وصف الحاجات النفسية، وبشعر أحياناً كدرو ولكنه كدر خال من المبالغة. وهما عناوين بعض قطعه المشهورة: العدل والسعادة (من الشعر الفلسفي)، الاختبارات والقصائد (من الشعر الوجداني)، وترجم له الدكتور طه حسين بعض القطع في كتابه (حافظ وشوقي) وهي كافية لان تعطى صورة عن فن الرجل. وتدور فلسفته حول تصادم الفكر مع العواطف.

*

* *

(٣)

(٣) ومثل هذا الاحتجاج (تقريباً بالحرف) يأتي به الغزالي في كتاب (المنقذ من الضلال)، قال:

»... فيأني تتبععت آحاد الخلق أسأل من يقصر منهم في متابعة (الشرع) وهؤلاء هم الذين يسميهم بأسكال في كتابه الأفكار: Les Libertins)، وأسأل عن شبهتهم، وأبحث عن عقيدتهم وسرهم، وقلت له: مالك تقصر فيها؟ فإن كنت تؤمن بالآخرة ولست

تستعد لها وتبيعها بالدنيا ، فهذا حماقة ، فإنك لا تبيع الاثنين
بواحد ، فكيف تبيع ما لا نهاية له بأيام معدودة؟ . . . »

والمسيو كارا ملاحظتة على هذا النوع من (المخاطرة) أو
الايمان خوفا من العقوبات :

« يظهر لى أن أهم اعتراض يمكن أن يوجه الى هذا الحجة ،
هو أنه إذا اعتنق المرء ديناً خوفاً من العقوبات ، فليس ذلك فى
الحقيقة بـإيمان ، ثم إذا كانت هناك أديان متعددة ، وكان الاحتمال
فيها يقبل الصحة ، فيجب أن تتبع منها الدين الذي يندرننا
بالعقوبات الصارمة ، وهذا عملية من قبيل العمليات التجارية . »

*

* *

(٤)

(٤) وأشار إلى هذا المعنى نفسه البوصيري في البردة (أي
إلى تحميد الآخرة على الدنيا ، بيد أن البوصيري يتكلم بهاطفة
المؤمن المتيقن بوجود آخرة ونعيم خالد ، والمتخوف من العقاب
والخسارة الدائمة :

« فـيا خسارة نفسى في تجارتها »

لم تشتر الدين بالدنيا ولم تسم »

ومن يبع أجلا منه بعاجله ❀ يمين له الغبن في بيع وفي سلم». على أن القراءان الكريم قد سبق كلا من الغزالي، وباسكال، والبصيري، والمعري، قال الله تعالى :

« وقال رجل مومن من ءال فرعون يكتنم إيمانه : أتقتلون رجلا ان يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ! وان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم . (الآية ٢٨ ، الحزب ٤٧ سورة حم غافر الذنب) .

وجاء في الانجيل (إنجيل متى ، الإصحاح الثالث عشر (٤٤ - ٤٦) صورة ترمز إلى هذا المعنى :

٤٤ ، « أيضا يشبه ملكوت السماوات كنزا مخفي في حقل وجدله إنسان فأخفاه ، ومن فرحه مضى وباع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل . (١)

٤٥ ، أيضا يشبه ملكوت السماوات إنسانا تاجرا يطلب لآلى حسنة

٤٦ ، فلما وجد لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن مضى وباع كل ما كان له واشترىها . (١)



(١) هذا الحقل وهذه اللؤلؤة هما الآخرة كما يظهر . على أنى لا ارید أن أثبت هنا بهذه المقارنات أن فكرة المخاطرة معادة تماما ، وإنما أحاول أن أظهر ما في جميعها من شبه . وللقاريء ان يوازن بينها .

ونلاحظ هنا ان المعري وباسكال متفقان على طول الخط ،
مع اعتبار المعري من اللاأدرية ، أو حملاً لشعره على انه تعبير عن
خطرات ساعة ، شأن السوداوى .

كما ألاحظ أيضاً ان المعري اقل هدوء في تفكيره وارتياحه
- لانه متشكك - من الغزالي وباسكال لانهما مومنان .

*

* *

وهناك من جهة اخرى فرق دقيق بين مخاطرة باسكال
واحتجاج الغزالي على منكري الدين ، فمذهب باسكال لا يكفى
في الدين ، لان الايمان لا بد فيه من العقد الجازم ، فانتقاد مكارا
(في تعليقه) لا ينطبق تماماً على مخاطرة الغزالي بقدر ما يصيب
الهدف فيما يخص مخاطرة باسكال ، لان أبا حامد يقرر بحجته
الجدلية ، ان في الدين السلامة من الخطر الاخروي على وجه محقق ،
فتكون على هذا نظريته تفسيراً لقول الرجل من آل فرعون
(في الآية) .



اللانهاية

(١)

إيضاح جبري :

أ) إن الأعداد لانهاية من حيث الكبر :

إذا قلت إن فلانا يملك مليارا من الدولار فهذا أكبر رأس مالي ، (١) أجيبك بأن الشركة الفلانية تملك مليارين ، فهي إذن أغنى منها .

ولكن ، هل ملياران هو أكبر عدد موجود ؟

لا ، طبعاً ، لأن البحر الأبيض المتوسط يحتوي على عدد أكبر من مليارين من المياتر المكعبة من الماء ، وأكبر من هذا عدد مياتر المحيط الاطلانطيكي .

ويجب الانقفا هنا ، فأكبر من مياتر ماء المحيط الهادي عدد ذرات هذا الماء .

على هذا النحو نجد لكل عدد كبير عدداً أكبر منه ، وإن

كل عدد مهما عظم قابل لان يضم لآخر كبير أو صغير فيكون العدد الناتج اكبر من العددين المضمومين، وهلم جرا، فالعدد الآتي:

2,014,000,600

عدد كبير، لكن إذا أضفنا له واحداً مثلاً، صار العدد الثاني اكبر من الاول:

2,014,000,601

نتيجة أولى:

لا يوجد أي عدد أكبر يبلغ اللانهاية في الكبير.

*

* *

(ب) إن الأعداد لانهاية من حيث الصغر.

تتسأل الآن: ماهو اصغر عدد؟

أول ما يتبادر للذهن هو السفر، بيد أن المثل الآتي يفهمنا غير ذلك

لك ٥ فرنكات،

نحن ثلاثة } أما أنا فليس لي شيء وليس لغيري شيء،
وثالثنا مدين لآخر بفرنكات ١٣.

أنت أغنانا ،
 فيكون
 ويليك في الغنى من لاله ولا عليه (أي أنا صاحب السفر)،
 على هذا
 وأقلنا طبعاً من هو ملزم بتأدية ما عليه (أي ١٣) .
 فالحد إذن بين من يملك فسرنا واحداً ومن هو غريم بفركنا،
 من لا يملك شيئاً وليس بدمته شيء ، كما يتضح في (الصورة ١) :



نسمى ما هو ملكك عدداً موجباً ،
 ونلاحظ ان الاعداد الموجبة توجد على يسرة السفر ، (وهي
 في الصورة 1 و 3 و 4 +) ، وقد سبقت بعلامة الايجاب (+) .
 ونسمى الاعداد الاخرى التي هي دين عليك بالاعداد السلبية ،
 ونلاحظ ان الاعداد السلبية على يمنة السفر (لانها اصغر منه) ،
 وهي في هذه الصورة (-٥) و (-٣) و (-٢) و (-١) ، وانها مسبقة
 بعلامة السلب (-) .

ملاحظة عامة :

كل عدد قارب السفر فهو اكبر من الاعداد التي على يمينه ،
فـ (١ -) اكبر من (٣ -) و (٣ -) اكبر من (٥ -) .

فما هو أصغر عدد إذن ؟

إن (١٣ -) أصغر من (١ +) بل أصغر حتى من (١ -) لأن
(١٣ -) أبعد من (١ -) عن السفر .

فيإذا كانت شركة مدينة بما قدره :

٣٠٢١ ، ٢٠٠٠ ، ٧٠٠

فهي أغنى من الأخرى المدينة بما قدره :

٣٠٢١ ، ٢٠٠٠ ، ٧٠١

فالعدد الثاني أصغر من الاول لاننا زدنا (١ -) على الاول .
وعلى هذا النحو ، إذا زدنا على أي عدد سالب عددا سلبيا
، اخر ، صغيراً كان أم كبيراً ، فإن العدد الناتج عن عملية الضم أصغر
من العددين المضمومين ، وهلم جرا .

نتيجة ثانية :

إنه لا يوجد عدد أصغر يبلغ اللانهاية في الصغر .

نتيجة عامة :

الاعداد لانهاية من حيث الكبر والصغر .

يرمز لللانهاية بالعلامة الآتية ∞ مصحوبة بعلامة الايجاب
أو السلب على حسب الحالة (انظر الصورة ١) .
(٢)

تطبيق من القرآن العظيم

يظهر لى أنه يوجد مثال فى القرآن العظيم لللانهاية فى
حالتى الايجاب والسلب .
قال تعالى :

« يوم يقول لجهنم : هل امتلأت ؟ »

وتقول : هل من مزيد ؟ » (١)

إن المتكلم يضع لجهنم هذا السؤال بعد أن يلاحظ ان عدد
المعذبين قد بلغ (فى نظره) الرقم القياسى ، أى اكبر عدد ممكن ،
بيد ان السعير يحجب : هل من مزيد ؟ ومن يذفيه تنكير للتعميم ؛
فجهنم لم تحدد عدداً صغيراً أو كبيراً ، فهى تشعرنا بأنها
ما تزال فاتحة بابها على مصراعيه لقبول الزيادة ، مهما عظمت هذه

(١) وجاء فى حديث (ساقى الامام ابن تيمية فى العقيدة الواسطية
ص ١٧ ، المطبعة السلفية ١٣٣٤ هـ) ان رسول الله صلعم قال : « لا تزال
جهنم يلقى فيها وهى تقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة فيها
رجله وفى رواية - عليها قدمه - فينزوي بعضها إلى بعض ، فتقول : قط ، قط » .

أو صغرت ، فهذا هو اللانهاية

لكن هل ياترى هذه اللانهاية إيجابية أم سلبية ؟

انها الإيجابية (بالنسبة لجهنم) طبعاً مادام مجموع أعدادها فوق

السفر ، يعنى أنها تقبل أفراداً وعددهم إيجابي .

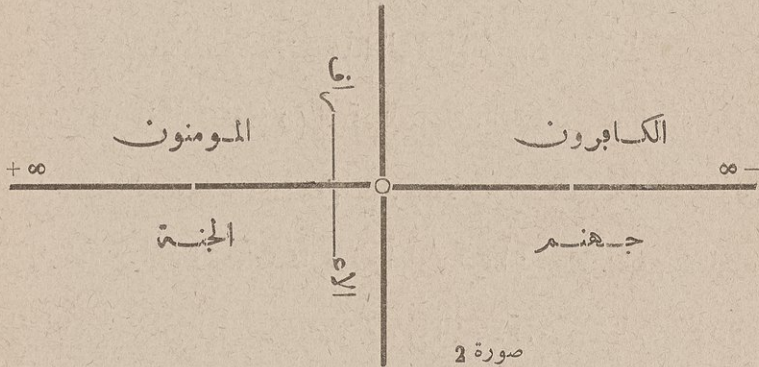
فلنجعل الآن رمزا للجنة والنار ، على الشكل الذي يتبع

في الحساب : فجهة السلب هي جهنم (لانها مقر الخاسرين ، فكل كافر سلبى بالنسبة لنفسه ، ومن هنا اعتبارنا لوجود السلب) .

ونجد بين الرابع والخامس مقر من لا له ولا عليه ، أي السفر

(في الجبر) يعنى (الاعراف) ^(١) في مثالنا ، لانه الحد الفاصل بين

اللجنة والنار (انظر الصورة ٢) :



(١) انظر سورة الاعراف : الآية ٤٨ .

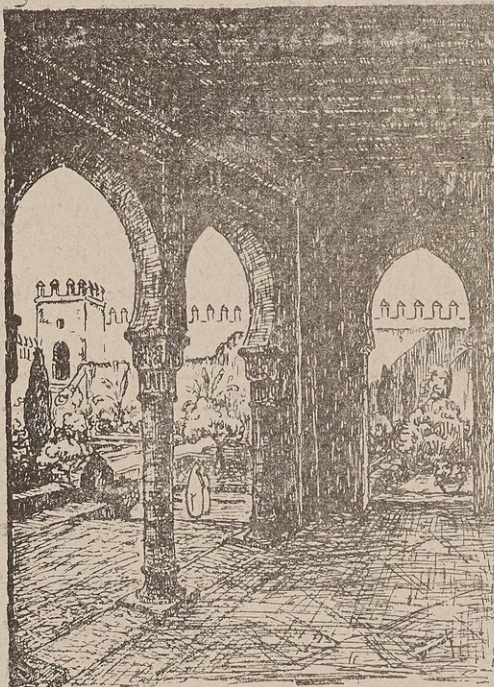
والاعراف سور بين الجنة والنار . وعوضاً من الاعراف يمكننا ان نجعل في الصورة الصراط ، فهو ، كما يقول شيخ الاسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية « ص ٢٤ » : « الجسر الذي بين الجنة والنار » .

نستنتج أن هذه الآيات قد أشارت إلى اللانهاية، ومن ناحية

أخرى قد احتوت على الإيجاب والسلب، كل ذلك في بضع

كلمات لا أقل ولا أكثر. فما أكثر نواحي إعجاز القرآن، وما

أعجز البشر عن أن يأتوا بمثله.



رأى الدكتور ساشو Ed. Sachou

في أبي حامد

لقد جاء في مقدمة لتاريخ البيروني^(١) بقلم الدكتور ساشو -
بعد كلام كله إعجاب بال مؤلف ، وهو إعجاب لعمرى في محله -
حكم قاس على الغزالي :

« قد شاهد القرن الرابع^(٢) انقلابا في تاريخ التفكير
الإسلامى : فالرجوع الى العقيدة السنية حوالى عام ٥٠٠ قد
ختم الى الابد سير البحوث الحرة ؛ فلولا الاشعري ، ولولا
الغزالي ، لكانت الامّة العربية أمتاً أمثال (غاليلى Galilée)
و (كيبليز Kepler) و (نيوطن Newton) » .

(١) أبو الريحان محمد بن محمد البيرونى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ [ويقول
صاحب الاعلام سنة ٤٤٠ هـ ، وياقوت سنة ٤٣٠ هـ] . وهو رياضى
وفيلسوف ورحالة عربى .

(٢) بل القرن الخامس ، لان أبا حامد لم يزد الا سنة ٤٥٠ هـ .

انتهى ماروالام كارا عن الدكتور ماشو .

*

* *

Galilée غاليلي (١٦٤٢ - ١٥٦٤) عالم إيطالي ، طبيعي

وحيسوبي ومنجم .

اخترع آلات في الفيزيق والتنجيم ، كميزان الحرارة ،

والنظارة التنجيمية Lunette astronomique التي أعانتها على

اكتشافات مفيدة .

وهو زعيم النظرية : « إن الارض تدور حولي كالسيارات

الآخري » ، هذه النظرية التي جرت عليها محاربة فعالة من

الكنيسة ومن أصحاب المدرسة التقليدية الجدلية .

☆☆☆

أما كيبلير Jean kepler [١٦٣٠ - ١٥٧١] فعالم ألماني .

تعاطى منذ صغره دراسة الرياضيات . وقضى طرفا من عمره في

وظيفة منجم الامبراطور (رودولف) الثاني .

وله نظريات في المريح .

أهم كتبه : التنجيم الجديد (ظهر سنة ١٦٠٩) .

☆☆☆

ونموطن Isaac Newton (١٧٢٧ - ١٦٤٢) عالم أنجليزي ،

طبيعى ومنجم وفيلسوف .

وله في الحساب والفيزيقي اكتشافات مهمة ، على رأسها

قانون التجاذب العام ، او ميل الاجرام بعضها الى بعض

La gravitation universelle ، وهذا القانون يعد بحق الحجر

الاساسى للعلوم الطبيعية الفيزيائية .



دحض الراي المتقدم

دفاع م كارا عن الغزالي

لاندري كيف نعلق على حكم الدكتور ساشو. إننا لانعرف
عن احوال انتاج العبقرية الا شيئاً نزرأ. ومن ناحية اخرى ،
يجب ان نعتقد انه لو وجدت عبقرية إسلامية من طراز غليلي
ونيوطن ، لكانت لها القوة الكافية على خرق نفوذ الدين ،
مهما عظمت سلطته على الجمهور . (١)

(١) وقد وجدت بالفعل شخصيات ، من بينهم ابن خلدون مؤسس
علم الاجتماع ، والادريسي الجغرافي الشهير ، وأبو حسن علي المراكشي
المنجم الكبير الذي أصلح أغلاط بطليموس [وأكتفى بهؤلاء المغاربة على
سبيل المثال ، ففي كثير من الشعوب الاسلامية وجدت أدمغة جبارة] .
ثم إن الدين الاسلامي لم يقف في طريق البحوث العلمية القحة في يوم
ما ، بل على العكس راجت وانتشرت البحوث الحرة بفضل تشجيعاته
وتسامحه وحضه على البحث [انظر فصل : تسامح الخلفاء ، وفصل ماهو
أصل علم الكلام] .

ثم إن انتصار الغزالي لم يتم لأن ابن رشد قد حاربه ، كما حاربه الكثير من المؤلفين الارتيابيين الذين اتوا بعد ذلك على هذا أنه لم يصل إلى إيقاف نهائى لمناقشات عام الكلام . ولقد شعر الفكر الإنسانى بالشرق [قاطبا تقريبا] باحتياجه الى الانزواء تحت عقيدة ثابتة ، [وقد شعر الغرب فى نفس الوقت بمثل هذا الاحتياج] .

لماذا اذن أخذ النمو الفكري يضعف بالشرق ؟ إن هذا شيء غامض ولا يمكننا ان نعزوه الى مجرد تأثير مفكر او مفكرين ! انه ليرجع من ناحية الى شبه ملل فى الذريرة ، ومن اخرى الى أسباب سيامية . ويجب ان نلاحظ ان المارقين من الدين انفسهم كانوا يشعرون بالاحتياج الى السلطة ، مادام ابن رشد الذي ينظر اليهم كخارج عن السنة يحترم سلطة ارسطو احتراماً لم يعرف قبله .

وكانت بالغرب كذلك السلطة على الناحية العلمية اقوى صرامة منها فى غير ذلك العهد ، وفي الوقت نفسه كان النفوذ الدينى يزدد اتوطدا ، حتى اذا ظهر غليلي وديكارت وجدا نفسهما مضطرين لا إلى مقاومة الاطنائين الدينية فحسب ، بل إلى ان يناضلا

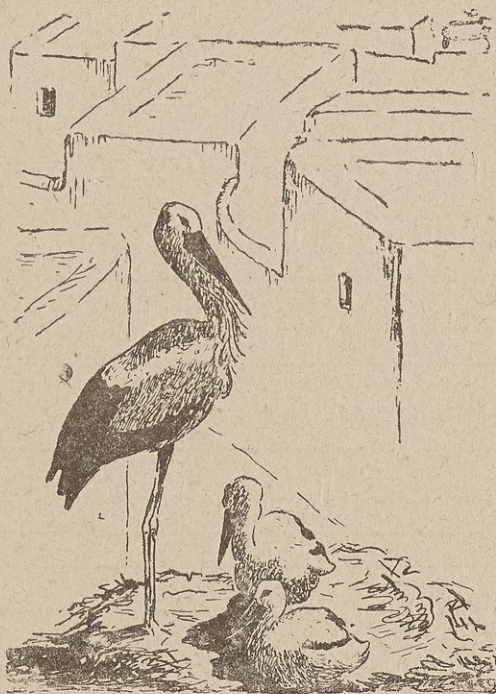
حتى ضد الطرق المتبعة إذ ذاك في البحث العلمي التي كانت الكنيسة تفرضها فرضا ، فمسألة السلطة كانت اذ ذاك تقريبا عامة بالعالم ، بيد ان المضادة التي انتشرت بالغرب ضد هذه السلطة ايام النهضة ثم زمن الثورة^(١) لم تجد صداها في الشرق الا في ايامنا هذه .

ومهما يكن من شيء فإننا لانستطيع ان ننكر عظمة الغزالي .
حقا ، لم يكن فكرا متجها اتجاهها عليا صرفا ، بل كان بالاختصاص فكرا ميالا الى علم الأخلاق والى الدين ، وقد اشعرنا الى انه كان مجددا في كثير من النواحي في هذا الضرب من المعرفة ، وانه اكثر تجديدا في الجملة من خصميه ابن سينا وابن رشد وقبل ان يحارب ابو حامد الفلاسفة قام بهجمات ضد إفراطات المدرسة الجدلية التقليدية ، وضد سوء استعمال العقل مطلقا ، وحتى ضد اصحاب السلطة الفكرية . فلقد بحث عن حدود العقل وأوما بدون ادنى التباس الى موقف اصحاب السلطة

(١) يظهر انه يقصد النهضة الاوربية [التي بدأت بالانبعاث الايطالي في القرن ١٤] والثورة الفرنسية التي بدأت في سنة ١٧٨٩ .

من الإيمان ، وكان أخلاقيا وذا دراية بالتحليلات ، عالما بعلم
النفس ، ويمكننا ان نعدلا من الطراز الحديث فيه ، وقد قدم
علم النفس على الجدل او القياس المنطقي

واذا زدنا على هذا طهارة نفسه ، ووقار حياته ، واتساع
خدماته ، ولين طبعه ، وباعه الكبير في الكتابة ، فإننا لانرى
بدا من ان نختتم بالتصريح بأن الغزالي احد كبار ممثلي التفكير
الانسانى في القرون الوسطى .



الشك مبدا اليقين

الغزالي وديكارت

(١)

ديكارت (René Descartes ١٦٥٠ - ١٥٩٦) حيسوبي
وفيلسوف فرنسي يعد مؤسس المذهب العقلي في العصر الحاضر.
تأليفه الفلسفية :

ا « حديث المنهج ^(١) Discours de la méthode

ب « كتاب التأملات فيما وراء الطبيعة Méditations
métaphysiques

ج « كتاب الانسان Traité de l'homme

د « حديث الشهوات Traité des passions

وله مؤلفات اخرى في الرياضيات ، وقد لاءم بين العمليات

(١) وعليه نعتد في دراسة الشك عند ديكارت ، وهو أشهر كتبه
وإن لم يكن أهمها .

الجبرية وعلم الميكانيك وعلم الهندسة

فلسفتي :

امامها الشك في كل شيء حتى في حواسها وملكات، ومن الشك يصعد الى الحقيقة . بدأ بقطع كل حبل يصلها بما وصلت اليه معرفة الانسان ، غير معتمد على شيء آخر غير الفكر والاتساع (L'étendue) فكان يقول : « اعطوني اتساعا وحر كة ابن لكم العالم » وبما انه وضع اساس فلسفتي جديدة ، رأى من الواجب ان يحدد قواعد جديدة للبحث ، فكتب « حديث المنهج » حيث بسط هاته القوانين الاربعة للتفكير :

١ « الا اقبل ابدا صحة اي شيء الا اذا اتضح لي بديهيها انه صحيح .

٢ « ان اقسام - الى اكثر ما يمكن من الاجزاء - كل صعوبة من الصعوبات التي اتناولها بالبحث حتى يتسنى لي تحليلها على احسن طريق .

٣ « ان اسوق افكاري بنظام ، بادئا بالمسائل البسيطة السهلة ، لأرتفع شيئاً فشيئاً الى ادراك ما هو اكثر منها تعقيدا وتركيبا ، وان افرض ترتيبا حتى بين الاشياء التي ليس بينها

تتابع طبيعى .

٤ « أن أجعل فى كل شىء تقسيمات تامة ، وأن التى نظرات عامة متكررة حتى اتيقن انى لم اغفل اى شىء » .
هذا ملخص تلك القوانين التى تعد بدعة فى تاريخ الفلسفة بالقرن السادس عشر؛ فلنلق عليها نظرة قصيرة :

القانون الاول يعطى للعقل حرية نافعة فى الناحية العلمية ، ويدفع الفيلسوف الى الخروج من تقليد ارسطو المطلق ومن الانقياد لآيحاء العواطف وتأثير الخيال ، فليس هناك من واضح يدرك عن طريق الحواس ، وانما الواضح ما ادرك العقل وضوحه .
على ان فى هذا الاستقلال المطلق للعقل افراطا : ان الواضح لا يوجد فى كل اصناف المعرفة ، فملى هذا كلما انعدم الواضح حصل الارتباب ، ومن هنا نصبح سوفسطائيين نرتاب فى [التاريخ] وفى [ما وراء الطبيعة] مثلا ، لانهما علمان لا يخضعان لقانون الواضح ، [وهذا يتناقض مع نتيجة الشك عند ديكارت نفسه كما سنرى]

اما القانون الثانى ، فتقسيم الصعب هو اختبار كل حالة من الحالات المختلفة التى يمكن ان تطرأ على المشكلة التى نعمل

على حلها، وفحص كل حالة على حدة كأنها مشكلة منفردة.
 فإذا كان بحثنا يدور حول اجرام او مواد (كما في الهندسة
 والكيمياء مثلاً) وجب علينا ان نهتم بكل جزء من الاجزاء على حدته.
 ان ديكارت يعطينا في هذا القانون قاعدة الاختبار لا قانونا
 للبحث كالقانون الاول.

اما القانون الثالث فيحضنا على ان نبدأ بالسهل البسيط
 ومنه ننتقل الى المركب، فما هو اذن البسيط؟

هذا ما يجب عنه ديكارت في كتابه (قواعد لقيادة الفكر
 Règles pour la direction de l'esprit) بأنه هو الواضح الذي
 لا يمكن العقل ان يقسمه اقسامهم اصغر.

نلاحظ انه لا يمكن ان نبدأ بالجزء، إذ يجب ان نقوم اولاً
 بتفحص الكل لنعرف كيف نقسمه إلى اجزائه.

واما القانون الرابع فيطلب منا ان نتيقن بأننا لم نغفل شيئاً
 في بحثنا او تحليلنا.

والحقيقة ان هذا القاعدة تكميلية للشالثة وطريقته الاختبار،
 اكثر منها قانون.

*

* *

(٢)

مذهب الشك عند الغزالي وديكارت:

شك الغزالي في صحة احكام الحواس (١) ، وعرض على
الخصوص بأقواها وهي حاسة البصر : اتناحين ننظر الى الظل نحسبه
واقفًا لا يتحرك، ونحكم عليه بعدم الحركة، مع ان هذا حكم يتناقض
ونتائج التجربة، فالحواس اذن بطبيعة تركيبها مضلة لا امان معها .
ونرى كذلك ديكارت يتخوف من خداع الحواس : ان
الشئ الواحد يبعث الصور المختلفة في الظروف المتباينة ، الشئ
الذى يجعلنا حائرين لا ندرى ماهي الصورة المخالفة للواقع فنتجنبها ،
وما هي الصورة المطابقة للواقع فنعتمد عليها .

ثم ينتقل الغزالي من شك في الآثار الحسية الى الشك في
احكام العقل : نرى ونعمل في النوم اموراً وكلنا اعتقاد في
استقرارها ، حتى اذا استيقظنا علمنا انه لا اتصال واقعي بين
اليقظة والنوم فنبقى في حيرة ، لانه لا يبعد ان يطرأ على يقظتنا
شئ يحولها الى وهم كما طرأت على المنام اليقظة فهدمته .

ويأتى كذلك ديكارت بمثال المنام واليقظة : يرى النائم فيما يرى
كثيراً من الصور والوقائع لا يلبث ان يكذبها في يقظته ، فكيف

يمكننا ان نرجح صحة المنام على اليقظة او اليقظة على المنام،
ونحن في محاکاتنا وتفضيلنا لنعتمد الا على العقل - وهو بطبيعة
تكوينه خادع غشاش - والعقل يعتمد على الحواس، وهي ايضا
بطبيعة تركيبها تجرأ للخطأ، وانما لنتكبد اغلاطاً ونعتمد على
اقيسة ضد المنطق حتى في الهندسة ؟

*
* *

الى هنا يتفق الرجلان، ومن هنا يفترقان، حيث ان الغزالي
يصل بشكهم الى السلب المطلق ويقف، اما صاحبنا الآخر
فيستمرسل في طريق بحثه، فعلى السلب يبني الايجاب، ومن
الشك يصل الى اليقين، كما يصرح بذلك هو نفسه: « كلما
شككت ازددت تفكيراً فازددت يقيناً. »

*
* *
(٣)

نتيجة ارتيات ديكارت

(١) يقول: « اشك في كل شيء، ولا اسلم صحة اي شيء
الا اذا اتضح لي وضوحاً جلياً انه صحيح. »

لكن ديكارت مهما ارتاب في كل شيء فإن ارتيابه لا يشمل

حقيقة واحدة ، حقيقة تصم العزيمة على الثبوت رغم عاصفة الشك وتيار الارتباب ، تلك هي وجود (من يشك) . فان ديكارت وان ارتاب في كل شيء ، حتى في وجوده ، فان هذا الشك لا يمكن ابداً ان يشمل (فكرة) مادام التفكير ولوعن (طريق الشك) يثبت وجود (الفكر) .

فلا تصور ما شئت اني مخطيء او مصيب في الحسيات والجليات ، ولا افرض ان العالم الخارجى غير موجود البته ، لكنى ارى نفسى منقاداً الى الاعتراف بوجودى الذاتى (اى كذات مفكرة) ، وإلا كيف ساغ لى ان اتخددع وان احكم على نفسى بانى اتخددعت اذا لم أكن موجوداً ؟ يمكننى ان أشك في كل شيء الا في كونى أشك ، وهل الشك الا صنف من أصناف التفكير ؟ وبما ان (التفكير) يستلزم وجود (المفكر) ، إذن : « أنا موجود . » (١)

ولخص ديكارت هذه النتيجة ، التى أضحت قانوناً أساسياً لفلسفته كلها ، فى هذه الجملة اللاتينية المشهورة « Cogito ergo sum » :

(١) ويفرق ديكارت بين شيئين : عملية التفكير والاعتقاد ، وعملية الشعور بأننا نفكر او نعتقد : « إن عملية الفكر التى نصل بها الى اعتقاد الشيء ، ليست هى نفس العملية التى نعرف بها اننا نعتقد هذا الشيء » .
عني حديث المنهج .

إني أفكر ، إذن أنا موجود .

على أننا نلجس عرجاً في هذه القاعدة التي تعد الأساس في مذهب الشك عند ديكارت ، وذلك ان الأجدر بالجملة - من الناحية المنطقية - ان تكون كما يأتي :

- | | | |
|-----------|---|-----------------------------|
| المقدمتان | { | ١ - التفكير يستلزم الوجود ، |
| | | ٢ - أنا أفكر ، |
| النتيجة | { | إذن : |
| | | ٣ - أنا موجود |

كما نلجس عطياً آخر ، وهو ان ديكارت لم يثبت فيما تقدم الوجود (كذات مفكرة) ، ولم يثبت وجود نفسه من حيث الحس والشعور ، ومن جهة أخرى لم يثبت وجوده من حيث هو جسم ، اي (ما يعبر عنه ديكارت ، في حديث المنهج : ب) « الذات التي كل كنهها انها تاخذ حظها من (الامتداد) » ، يعني تلك الذات الحيوية التي تختلف عن الذات المفكرة وعن الروح التي « كل كنهها في انها تفكر » .

فلديكارت ، من هذه الناحية ، شبه كبير بالمعتزلة الذين حكموا العقل في كل شيء ، وفوق كل شيء ، وتناسوا ان الانسان حيوان ذو جسم وإحساس وعقل ، فاكتفوا باعتبارها من ناحية

التفكير المجرد فحسب .

ومما يجب ملاحظته على المتميزة (خاصة) انهم تغافلوا عن وجود الافتطار (intuition) ^(١) مع ان الدور الذي يقوم به في وصولنا الى إدراك بعض الحقائق ، او البعض من الحقائق ، مهم جداً ، فهو يوازي عمل الفكر (ان لم يتعدا) ؛ فحتى في العلوم الوضعية القحة كالحساب بانواعه (ميكانيك ، وجبر ، و ...) ، وكذلك الفيزيقي ، فان الفكر لا يتمتع بالنفوذ المطلق عند البحث ، فلنتبع حركات حيسوبي وهو يحل مشكلة هندسية مثلاً ، اننا نلاحظ انه يبدأ بتسجيل إحياء افتطاره وبصيرته ، ذلك الضياء الذي ينير له طريق اختراع التحليل دون ان يعتمد على المخيلة والحواس . وهكذا ينبثق رأي هذا الباحث ويسطو على السحب الكثيفة التي كانت تخيم فوق دماغه . بعد هذه المرحلة الاولى ، ياخذ عالمنا يختبر ما وصل اليه ، فيزنه بقواعد المنطق . (نستنتج من هذا ان دور الفكر ياتي في المرحلة الثانية) .

ومما يمكننا ان نوجه ضد الغزالي وديكارت على انتقادهما الحواس والفكر أننا :

(١) اما الغزالي وديكارت فلم يهملوا [انظر الفصل الذي بعد هذا دراسة كتاب المنقذ من الضلال بصفحة ١٤٩ - ١٥١]

(أ) - اذا كانت الحواس تتخدعنا احياناً ، فإن (علم النفس) يلتقنا قواعد نمير بها حالات الخداع من حالات الصواب وتعطينا طرقاً نتجنب بها هذا الخداع (١) .

(ب) - واذا كان التفكير لا يؤتمن فيما ينقل اليه من احكام فان (علم المنطق) يحدد لنا قوانين نخضع لها تلك الاحكام فننخل بواسطتها الصحيح من الفاسد .

*
* *

٢ - من النتيجة المتقدمة (اي اثبات وجود نفسه) يصعد ديكارت الى اثبات وجود الله :

افكر اذن انا موجود ، وانا لم أوجد ذاتي ، فاذن هناك كائن هو الذي اوجدني ، فهو موجود .

ثم اني أشعر اني لست بكامل ، وأعترف بوجود صفات للكمال لست متصفا بها ، فلو كنت انا الذي أوجدت نفسي

(١) و جهل المعتزلة لعلم النفس كذلك هو الذي يجعلنا نلص بعض الشذوذ في مذهبهم ؛ فعلم المنطق ما كان ليستقل بنفسه عن بقية فروع الفلسفة ، في دائرته الضيقة التي رسمها له أرسطو .

فإذا كان المنطق يبحث في (كيف يجب ان يفكر العقل) ، فعلم النفس يقرر الكيفية الواقعية للتفكير وحقيقة التفكير . فالمنطق يفرض قواعد ، وعلم النفس يستنتج القواعد مما يشهد ، ويصفها كما يشاهدها .

لما جعلت فيها نقصانا .

فعلى هذا لابد من [كائن] اكثر منى كلاً هو الذى اعطاني كل ما عندي .

هذا الكائن هو الله ؛ فالله اذن موجود .

نلاحظ على ديكارت كونه يذهب بنا إلى الشك المطلق ، الى اللانهاية السلبية ، ثم ياخذنا معه فجأة الى عالم مناقض للأول كل المناقضة ، الى اليقين المطلق ، الى اللانهاية الايجابية ، ولسان حاله يقول ، متمثلاً بشرط بيت لأبى نواس : « كلام الليل يحوّل النهار » .

فهو قد بالغ فى تشكيكنا أولاً ، ثم نقلنا فجأة الى اليقين التام ، الى اثبات وجود الله حتى اذا قلنا له : ان بقايا من الشك ما تزال تخالج فكرنا ، أجاب : ان فكرة وجود الله هي التى تخرجنا من هذا الشك . لكننا نسأله : أيستعان بالنتيجة على إثبات المقدمة ؟ ما ظن ديكارت قادراً على إفحامنا .

ومن الأسس أيضاً التى بنا عليها ديكارت شكوكه ، اننا نحكم على الاشياء اعتماداً على أفكار وهمية ، كالأفكار الموروثة والمعتقدات التقليدية ، ويدعو الى نبذ تلك الافكار واجتناب

التقليد : إن المقلدين نفر لا يستطيعون تكوين فكرة شخصية في موضوع من المواضيع ، ولا يقدرّون على تمييز الحق من الباطل ، فيعتمدون على آراء غيرهم .

ونجد الغزالي كذلك يمقت التقليد ، ويدعو للشك في المعتقدات الموروثة ، كما أثبت ابن الطفيل في رسالة حي ابن يقظان (ص ١٦ الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٣٦ ، النسخة العربية الفرنسية للمسيو جوتيي Lèon Gautier) : « ... ثم قال [الغزالي] بعد ذلك : ولولم يكن في هذا الا لفاظالا مايشكك في اعتقادك الموروث لكفى بذلك نفعاً ، فان من لم يشكك لم ينظر ^(١) ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى في العمى والحيرة ، ثم تمثل بهذا البيت :

« خذ ماترالا ، ودع عنك شيئاً سمعت به » ❀

في طاعت الشمس ما يغنيك عن زحل » .

فهذه صفة تعليمه ، واكثره انما هو رمز وشارة لا ينتفع بها الا من وقف عليها ببصيرة نفسه أولاً ، ثم سمعها منه ثانياً ،

(١) ويقول م برني Joh Burnet في هذا المعنى : « إنه ليندر أن يثبت المرأ فكرة قبل أن يكون قد نقاها » .

أو من كان معداً لفهمها، فائق الفطرة، فهو يكتفى بإسرها...». ونجد هذا المعنى نفسه في آخر كتاب ميزان العمل، يقول الغزالي: «... ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث لتنتدب للطاب، فناهيك به نفعاً، إذ الشكوك هي الموصلة للحق، فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقى في العمى والضلال» (١).

*

* *

ان ديكارت ينتقد الفلسفة وينخر الفلسفة، [في حديث المنهج] كما فعل الإمام الغزالي في تهافت الفلسفة لكن دون أدنى تحامل ولا مبالغة في التطرف، فلنقتبس اذن بضع فقرات من (حديث المنهج):

ان الفلسفة لا تقدم لنا الا ما يحتمل الصحة والبطلان، أو ما هو تقريباً باطل لا أساس له. اما الكثير من العلوم فهي متضمنة الاركان لانها تعتمد على أسس فلسفة غير متينة.

ثم يقول في القسم السادس من نفس الكتاب:

ان مثل أتباع أرسطو «أى معتق الفلسفة التقليدية الجدلية»

(١) كثيراً ما يعيد الغزالي المعنى الواحد في مصنفات متعددة، كما

نلاحظه في هذا المثال.

كمثل اللبلاب (١) الذي لا يحاول ان يعملو على الشجر المحيط
 به . انهم على العكس ينحطون ، وانحطاطهم آت من جرّاء
 ما اخترعون من صعوبات (لا يعرفها ارسطو) ولم تدرك في خلدنا .
 فهذه الفلسفة لا تليق الا بالعقول المنحطّة ، فإنهم يتسترون وراء
 غموض مبادئهم ، ليرتجوا في اي موضوع شاءوا دون ان
 يستطيع أحد أن ينجمهم ويظهر عجزهم ، فهم يعملون كأعمى
 يجر بصيراً الى قبر مظلم قبل الشروع في الملاكمة معه .
 (على ان انتقاد ديكارت لا يشمل ارسطو والفلاسفة القدماء ،
 وإنما هو موجه الى مقلدي ارسطو المقصرين ، وهذا فرق مهم
 آخر بين هجومات الغزالي وهذا الانتقاد .)

*
* *

ان من يقارن بين [المنقذ من الضلال] الآنف الذكر
 وبين كتاب [الاسابوب والتأملات] لمترجمنا ، يلاحظ ان
 ديكارت قد اقتبس أسس مذهب من حجة الاسلام ، بل تكاد
 تكون العبارات معادة في المصنفين ، على بعد خمسة قرون تقريباً
 (بينهما ٤٨٥ سنة) . وقد قام بهذه المقارنة الاستاذ شارل مسومان

(١) اللبلاب او البقلة الباردة (le lierre) : نبت يتعلق على الشجر وعلى
 كل ما في قربه .

الفرنسي ، في مقال ممتع ، اعترف فيه بأن الفيلسوف الأوروبى العظيم ، قد أخذ مباديء مذهب من الإمام أبى حامد الغزالي رحمه الله .

*

* *

« اعلم أن الشك فى طبقات عند جميعهم ، (١) ولم يجمعوا على ان اليقين طبقات فى القوة والضعف ، ولما قال أبو الجهم للمكى : أنا أكاد أشك ، قال المكى : وأنا أكاد أوقن ، ففخر عليه المكى بالشك فى مواضع الشك ، كما فخر عليه ابن الجهم باليقين فى مواضع اليقين .

وقال أبو اسحاق :

نازعت الملاحدين والشكاك فوجدت الشكاك ابصر بجوهر الكلام من اصحاب الجحود .

وقال ابو اسحاق :

الشكاك اقرب إليك من الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ٦ ، ص ١٠ (وقد نبهني إلى هذا المرجع الأستاذ الكبير القاضى سيدى محمد السائح) فنقلت هذه الامثلة هنا تكميلاً للفائدة .

ففيه شك ، ولم ينتقل احد عن اعتقاد الى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك ، (١)

وقال ابو الجهم :

ما اطمعنى في اوبة المتحير ، لأن كل من اقتطعته عن اليقين الحيرة فضالته اليقين ، ومن وجد ضالته فرح بها .
وقال ابو اسحاق :

.... والعوام أقل شكوكا من الخواص لأنهم لا يتوقفون في التصديق ولا يرتابون بأنفسهم ، فليس عندهم الا الإقدام على التصديق المجرد أو على التكذيب المجرد

*

* *

وقد آمن بهذا القانون أيضاً (الشك مبدأ اليقين) دفيدهيون الأنجليزي . وإمانيل كانط الألماني ، وشبينوزا الهولاندي (١٦٧٧ - ١٦٣٢) ، وشادوا عليه فلسفتهم متممين مابدأ ديكارت الفرنسي .

نرى مما تقدم ان أمس مذهب ديكارت أب الفلسفة

(١) يقول بهذه الفكرة نفسها الاستاذ Cuvillier في ج ١ ص ٤٦٦ من كتابه في الفلسفة .

العصرية، (كما يسمونها) ومذهب كثير من فلاسفة أوروبا الحديثة
قد عرفت عند مفكري الاسلام منذ قرون عديدة.



بضع ثوان مع الدكتور

زكى مبارك

يجد القراء فيما تقدم ، أني اكتفيت بإشارات إلى أفكار للغزالي
ينتصر لها أقطاب الفلاسفة الحديثة الأوروبية ، وقد لبست حلة
التجديد واصطبغت بطابعهم الخاص ، وكان كل همى الإشارة
فحسب ، لان موضوع هذا الكتاب لا يسهل أكثر من هذا . وانه
لمن أهم المواضيع (لبحوث مهمة مفيدة) مقارنات بين افكار هؤلاء
وافكار أبى حامد ، مقارنات ودراسات أمتن وأعرق مما حاوله
الدكتور زكى مبارك ، (مع كل احتراماتى) ، فى أطروحتي
(الاخلاق عند الغزالي) . حيث لم يظهر فيها بشخصية الاستاذ
زكى صاحب (التصوف الاسلامي والنثر الفني) .

تصدى الدكتور زكى لموازنة أبى حامد ببعض المعاصرين
من فلاسفة الغرب ، لكن ليست بين تلك الموازنات وحدة الموضوع .

وإذا تجاوزنا فاستثنينا مقارنته الغزالي بديكارت ، لا نرى للباقي من محل ، اذ لا يربط حجة الاسلام بأولئك الاوروبيين إلا جامعات ليست بأمتن من خيوط العنكبوت ، أبى قلم الدكتور الا ان يحو كها .

فلا كتف بأن اطلب من القراء أن يتفضلوا معي ، لنلقي جميعاً نظرة قصيرة على هذا المقارنة التي توفق فيها الاستاذ كي اكشر من توفقه في الموازنات الاخرى .

إن أول ما يفاخرونا فيها هو ان الدكتور زكي كردس قوانين (حديث المنهج الاربعة) حتى أمست تكرفس كرفسة ، وذلك أن ابتلع منها القانون الرابع ، أمتعفر الله ، إنه عوَضَ بقانون جديد (وهذا من شأن الكرام !) : إنه أقبر الرابع ، وأتى إلى الثالث وقزَّ الأحتى صيرة أعرج ، وانتزع منه ما اصطنع به قانوناً رابعاً ، ونسبه لديكارت ، ويشهد الله والمتفلسفون أجمعون ان ديكارت لم يضعه ولم يسمع به قط .

فالدكتور قد ارتكب ذنبن كبيرين ، ما أظن إله الحكمة يغفرهما له ، وذلك أنه أولا هدم (منهج) ديكارت ، إذ جعله يرتكز على قواعد ثلاث عوضاً عن أربع ، ثانياً أنه أعطب القانون

الثالث عطفاً خطيراً (١)

*

* *

فلنتترك ديكارت محتج على الدكتور ، ولننتقل من ص ٣٨٠ إلى التي تلي ، ففيها ما يلفت النظر .

يترجم الدكتور كلمة Intuition بالبصيرة ، ثم حاول شرح معناها ، فخانها التوفيق ، ولفق من جديد شيئاً جديداً على ديكارت ، وأشار من جديد الى هذا في ملاحظتين :

(١) منطقية - إن الدكتور يتناقض في تفسيره ، فهو تارة يدعى أن (intuition) جارحة : « الجارحة التي تدرك الحقيقة مباشرة » ،

وطوراً انها إدراك : « إدراك العقل السليم » ، والفرق بين (جارحة) و(إدراك) بيّن واضح .

ثم يقول : « إنه يولد فقط من أضواء العقل » . فهل الجارحة هي أضواء العقل ، أم أضواء العقل هي الجارحة ؟ ! فللدكتور حرية الاختيار ... رجاء الا يحتق علي .

(١) انظر « الاخلاق عند الغزالي » ص ٣٨٠ ، وفي هذا الكتاب ص ٢١٤ - ٢١٦ ثم ارجع الى الاصل الفرنسي (Discours de la Méthode) وبعد ذلك قارن

إن ديكارت يتبرأ بكل قوالا من مسؤولية هذا التناقض ؛
فلننظر كيف يعرف (الأتويسيون)^(١) : « ف intuition عندي
ليس هو أن أجعل ثقتي في شهادة الحواس المتغيرة أو في الاحكام
المخالطة التي تقدمها لنا المخيلة ، بل هو ادراك العقل السليم
اليقظ ، الادراك الذي لسهواته ووضوحه لا يبقى معه شك فيما
نفهم ؛^(٢) او بعبارة اخرى : الإدراك الوطيد (الثابت) الذي
يتولد من اضواء الفكر فحسب ، في عقل سليم يقظ ، وهو اسهل ،
وطبعاً أرجح ، من عملية استنتاج المطالب من المباديء ... » .^(٣)
فهذه العملية تستنتج تدريجياً ، اما (الأتويسيون) فتبصر بالشيء
دفعاً ، وتذكر كما بسرعة .

فليس إذن في تعريف ديكارت لفظه (جارحة) البتة ، فهي
من منتوجات فكر الدكتور ببارك ، بارك الله فيه ، وزكاة من
قلم الاستاذ زكي .

(١) عن كتاب « قواعد لقيادة العقل » لديكارت
(Règles pour la direction de l'esprit) .

(٢) فعن طريقه نتيقن مثلاً أن (الجزء أصغر من الكل) ، وأن (الكل
أكبر من الجزء) ، ونعتقد صحة أن [الشيء لا يكون معدوماً وموجوداً
في آن واحد] ، وغير ذلك مما هو بديهي .

(٢) الملاحظة اللغوية : أرى ترجمتها (١) ببصيرة لا يجوز ،
 لأن البصيرة كما في القاموس : « الحجة والاستبصار في الشيء » ،
 و (أنتويسيون) عند ديكارت : إدراك سهل واضح وليس بحجة ،
 لأن الحجة من قبيل déduction (٢) ؛ ثم ان : « البصيرة في القلب كالبحر
 في العين ؛ البصيرة تدرك المعقولات ، والبصر المحسوسات » ؛ (٣)
 فالبصيرة في القلب ، وديكارت يجعل (أنتويسيون) إدراكاً يتولد
 من أضواء الفكر فحسب ، في عقل سليم يقط ؛ فبينهما إذن بون
 شاسع . فالأولى أن يطابق على intuition (عند ديكارت) لفظة
 (حدس) أي : « سرعة الانتقال من معلوم إلى معلوم » ، كما يقول
 الغزالي في تهافت الفلاسفة . وجاء في الفروق أيضاً : « الفكر
 هو الانتقال من المطالب إلى المبادئ ورجوعها من المبادئ إلى
 المطالب ؛ والحدس هو الذي يميز عمل الفكر . »
 أما (أنتويسيون) ، لا عند ديكارت فحسب ، بل في معناه العام فهو : (٤)

(١) أعني intuition عند ديكارت .

(٢) انظر ص ٢٣٣ .

(٣) عن فرائد اللغة ، ج ١ في الفروق للأب لامنس .

(٤) أقب في هذه المسألة لأنها أمست من النقط الأساسية في الفلسفة
 الحديثة ، وإنهم ليهتمون اليوم بدراسة أنتويسيون بقدر ما يهتمون
 بدراسة العقل .

الإدراك الواضح المباشر للحقائق التي تحصل في العقل ،
بلا واسطة التفكير . فصوت الضمير مثلاً ، ليس الانوعاً من
الافتطار يدفعنا إلى الإصلاح والخير . وقد توسعوا في معنى
(انتويسيون) فأطلقوا على الشعور بالشيء ، قبل وجوده ، أو مع
عدم وجود قرائن .

وفي الاصطلاح الفلسفي : فهو حال من احوال الإدراك
السريع بلا واسطة التجربة أو التفكير ؛ الإدراك لأول نظرة ،
غير معتمد على براهين وبُحث ؛ إدراك البسيط لا المركب
أما برثكسن Bergson فقد جعل من (الانتويسيون) أساساً
متيناً لضرب طري من البحث دخل بالفلسفة في دروب جديدة .
فعند أن الانسان شخصان ، (١) شخص سطحي وشخص عميق .
فالاول يعتمد على العقل واللسان ، وهو شخص محدود ، بَيِّن ،
سطحي . أما الثاني فيأنه مبهم ، دائم الحركة ، ومن الممتنع التعبير
عنه ، لكنه أكثر عمقاً من الآخر إذ هو بحق الشخص الأصلي في الانسان .
فالافكار العلمية مثلاً التي يقدمها لك الاماتذة ، أو تقرأها
في الكتب ، افكار تدخل إلى شخصك السطحي لأنها لا تتصل

(١) انظر ص ١٥٠ و ١٥١ من هذا الكتاب .

الابغائك ولا تتغافل في شخصك العميق ، أي إنها شيء جامد
أضيف إليك ، عارض قابل لأن ينسحب حيث انه ليس من كنهك .
انظروا كيف يعبر (برجسن) عن هذا ، في تشبيهه بديع :
« فالافكار الجامدة التي يتكون منها الشخص السطحي تطفو
فوق مساحة شعورنا الداخلي ، كما تطفو الاوراق الذابلة فوق
ماء البحيرة » . (١)

*

* *

وهنا نتساءل : كيف يمكننا ان نصل الى هذا الشخص
الاصلي العميق الذي يحجبه عنا الشخص السطحي ويحولنا عنه ؟
يحيينا (بر كسن) بأن الطريق الأوحده وانتويسيون ، أي : « ذلك
النوع من الانجذاب النفسى الذي ينتقل به المرء الى داخل الاشياء
ليتمزج بما انفرد به كل واحد منها ، وبالطبع ما يعجز عن التعبير عنه » .
ومما يزيد في قيمة (الانتويسيون) ان ديكرت وبرجسن

(١) ان الاستاذين أحمد أمين وزكى نجيب محمود (قصة
الفلسفة الحديثة ص ٥٢٩ ، ج ٢) ، عند كلامهما عن بر كسن ، أعطيا
تفسيراً شعرياً لـ (أنتويسيون) اكثر منه فلسفياً ، حيث يعبران عن
بـ : « حاسة الحياة » ، ولا ندري .. أين ولا كيف هاته الحاسة ! فهذا
اسلوب رمزي غامض يحتاج إلى كثير من الشرح والدقة . وقد أتى
الأستاذان بتوطئة طويلة لأنتويسيون ، لكنهما حين وصلا إلى المقصود
مرا (مروراً بالمومنين على الصراط) ، فالرؤيا عندها أطول من الليل .

يعتمدان عليها لبناء صرح (ميتافيزيقي أي ما وراء الطبيعة) جديدة،
فالفغزالي - شيء من الشبه - بهما في هذه الناحية (فقد حاول
الوصول للحقائق عن طريق الذوق والإلهام ، كما رأينا) . (١)

*

* *

عرفت الأنتويسيون قبل برثكسن والفغزالي وديكارت .
فأفلاطون يجعل من الأفكار أمس المعرفة ، ويرى ان الوصول
إلى هذه الأفكار يكون عن طريق (الإدراك السهل المباشر الذي
يتجلى كأنه ذكرّة تستيقظ بداخلنا) ، وهذا الإدراك طبعاً هو
الانتويسيون .

ونجدها أيضاً عند أرسطو ، وعند القديس طوماس (على
ان هذا الأخير قد صبغها بالصبغة الدينية) كما عرفها آخرون
غير هؤلاء ، من القدماء وكثير من الجدد كـ (مالبرانش)
(كانط) و (بوسيني) .

ويعبر عنها نبي الاسلام (صالح) في حديث حسن أخرجه

(١) بما انه يصعب ترجمة (intuition انتويسيون) بلفظة عربية جامعة
مختلف معانيه ، اقترح ان يدخل في اللسان العربي هذا اللفظ الأعجمي
عوضاً من ان نبقى نتردد بين ذوق ، وحس ، وبصيرة ، وافتطار) ، وان
تسمى انتويسيون مرادفة لـ intuition في مختلف المعاني .

البخاري في تاريخه : « استفت نفسك وإن أفتاك المفتون » .
وقد شرح المناوي (١) هذا الحديث شرحاً ظريفاً اقتطف منه
هذه الجملة : « استفت نفسك المطمئنة الموهوبة نوراً يفرق بين
الحق والباطل ، والصدق والكذب . وفي رواية : قلبك أي
عول على ما فيه ، لأن للنفس شعوراً بما تحمد عاقبته أو تدم ... » .
فالفضل يرجع الى بر كسرها يكتسب من شيء ، لأنه وإن
كان لم يكتشف الانتويسيون ، فقد أعطاهما حقهما من الدرس
والعناية ، وجعل لها مجالاً خاصاً بها بعد أن رسم للعقل
حدود مجاله .

*

* *

لا أريد في هذه العجالة سوى أن أنبه الى ان الدكتور زكي
لم يف بما كنت اتوقع أن أجده في كتابه ، وقد كان يجب ان يعطني
آخرون بموضوع (الغزالي والفلاسفة المحدثين)
ولم ارد في هذه العجالة أن أنقد كتاب (الاخلاق عند
الغزالي) ، لان ذلك يخرج بي الى تطويل ، وسأرفي - ان فعلت -

(١) في ج ١ ص ٩٥ ، من كتاب شرح القدير على الجامع

مضطراً الى مواخذة الدكتور على امور وامور ، من ذلك اتهمه الغزالي بأنه يمتاز بقسط كبير من الغفلة لمجرد روايته بعض الاحاديث لم يستمأحها ذوق الدكتور ، فحكم عليهما بالضعف جزافاً ، ناسياً ان لعلم الحديث قواعد تركز على التاريخ - لان الاحاديث نقلية - وعلى المنطق ومعرفة اسرار التشريع والسيرة النبوية . . . اكثر مما تعتمد على الذوق الذي هو نسبي يختلف باختلاف الافراد ، فلنستمع لما يقول الدكتور ، (ص ١١٧) :
 « ... كيف صدق الغزالي ان النبي يقول : (ان الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ) و اقل الناس علماً بالبلاغة يدرك ان رسول الله لا ينطق بمثل هذا الحديث ؟ » !

ما هكذا يادكتور ينتقد الحديث ، فالفقرة الاولى مقبسة من القرآن (١) الكريم ، واما الفقرة الثانية (من الناحية البلاغية ، أي اتباعاً لطريقكم ، فهي تشبيه مركب ملفوف على حد قول امرئ القيس :

« كأن قلوب الطير رطباً وياساً » ❀

لدي وكرها العناب والحشف البالي .

« ١ » الآية ١١٤ ، الحزب ٢٤ ، سورة هود ، قال الله تعالى : « إن الحسنات يذهبن السيئات .. » .

طرفاً الاولان معنويان والآخران حسيان ، ولهذا يعد
من التشبيهات البليغة .

*

* *

كما سأراني مضطراً (او أنى تصديت الى انتقاد الاخلاق عند
الغزالي) الى التساؤل لماذا يصرح الدكتور بأن إخوان الصفا ،
والفارابي ، وابن سينا قد أثروا في تكوين الغزالي ، دون ان يجعل
لحكماء دعائم ، ودون ان يبين لنا الى اي حد كان هذا التأثير ،
وبهم ، وكيف كان ، مع ان موضوع كتابه يتطلب منه بكل إلحاح
هذه الدراسة .

*

* *

ونتساءل أيضاً لماذا يذكر من بين كتب الغزالي (المضمون به
على غير اهله) دون ان يفرق بين الأصغر والاكبر ، حتى إنه
في الفصل الخامس « الكذب على الغزالي » عشر عشرة ليست بالهينة إذ
جعل (كتاب النفخ والتسوية) على حدة ، و (المضمون به على غير اهله)
كتاباً آخر مستقلاً مع ان العنوانين لمصنف واحد يسمى بالاسمين
معاً . والكتاب يعزى لابي حامد كما ينسب للعالم المغربي ابي الحسن

على المسفر (١).

*

وسأراني ملزما ايضا أن أحاسبه باسم علم الحساب ،
وباسم الحيسوبيين ، على جعله ٥٣٠ سنة بين الغزالي وديكارت (٢) ،
مع ان عملية السقط والطرح البسيطة تعطينا نتيجة غير التي
ادعاها الدكتور ، فالغزالي مات سنة ٥٠٥ هـ اي سنة ١١١١ م
وديكارت ولد سنة ١٥٩٦ م ، فالبعد بينهما ٤٨٥ سنة ، (الفرق
يادكتور ، ٤٥ سنة ؛ ومن الغبن الغض عن ٤٥ سنة ، وهي
تكاد تكون حياة كاملة ...)

*

* *

وسأراني منقادا لان اظهر تصريحه عن الإغريق (٣) :
« . . . ولا ادري ماذا يفعل الغزالي إذا اقسم الاغارقة بالله جهد
ايمانهم انه لم يكن لهم إله واحد ، وانما كان لهم الف إله وإله ،
بل كان من آلهتهم من يحض على اللذة ، ويمهد للفسق السبيل !! » .
فأيم الله جهد أيماني ان هذا قدح بغير علم في الإغريق ،

« ١ » انظر ص ١٥٦ بهذا الكتاب .

« ٢ » انظر ص ٣٧٤ من (الاخلاق عند الغزالي) .

(21)

« ٣ » ص ٧١ من الكتاب نفسه .

وتنقيص من تفكيرهم ، وتجريح في آلهتهم يستلزم حد القذف على الدكتور زكي .

بارك الله فيك يادكتور ، إن لفظة (إله) تشعرنا بمعنى السمو في الكنهه والاتجالا . فالإله عنصر الحسن ، ومصدر الخير . اما لفظة (لذة) ، وكلمة (فسق) فتشعراننا بمعنى السقوط والانحطاط والازدراء فكيف ساغ للدكتور ان يجمع بين المعنيين المتناقضين المتضاربين ، معنى الالوهية التي تحلق بالافكار في اوج السمو وتحذر النفوس الضعيفة من الزلل والسقوط الى حضيض الشهوات البهيمية ، ومعنى فسق اي : « الترك لامر الله والعصيان والخروج عن طريق (١) الحق » ؟

ان الإله يرفع نحو الكمال ، وينزل بمطرقته الصارمة فوق جمجمة اولئك المنغمسين في الملاذ ، المنجذبين نحو هوة الفسق بحارف اللذة .

فالافكار الدينية والاخلاق ، كل اولئك نسبي . فلا يجوز لكم يا حضرة الامتياز ان تزنوا معتقدات الاغريق القدماء الوثنيين ونظرياتهم في الاخلاق ، بفكركم الشرقي المسلم

(١) كذا يعرفه صاحب القاموس .

الموحد ، فمثلا نقول ان الخمر حرام لاننا نحكم بفكر متشبع بالتشريع الاسلامي ، وفي نفس الوقت نجد قبطيا - مصر يا مثلكم - لا يقول بهذا التحريم . كما انكم تاكلون لحم البقر ، وتستحلونه مطبوخا ومشويا ، في حين ان الهندي البرهمي المعاصر ، وهو ابن الشرق كذلك ، يقدس البقر ويحرم على نفسه ماتفعلونه انتم كشيء طبيعي .

فلفظ (فسق) يطلق غالبا على اللذة الجسمية ، وعلى اعمال الذين يخرجون عن طريق الحق والصواب ، ويستحقون بطبيعة الحال عقابا من ربهم ؛ فإذا كان هذا الرب المعبود يحض هو نفسه على اللذة ، ويمهد للفسق السبيل ، ارتفعت عنهم المسؤولية واضمحلت إمكانية الجزاء على (الفسق) ، بل إنهم يعاقبون ، إلزاما على تركهم الفسق مادام الإله هو الذي يمهد لهم السبيل اليه ، ويحضهم عليه ! ..

حقا ، كان عندهم باخوس Baccus إلهاً للخمر ، أي مشرفا على زراعة العنب ، ولكن لم يكن الخمر فسقا بالنسبة اليهم حتى نعتبر باخوس يمهد للفسق السبيل .

وكان عندهم كثير من الآلهة [الف اله واله] ، كما يقول

الاستاذ زكى [ولكن فلنكتف بمثال باخوس ، وليتفضل حضرة
الدكتور بمراجعة [الميثولوجية (١)] الاغريقية من جديد .

☆☆☆

فليسمح لى القراء ان اكتفيت بهذا القدر من مناقشة
الاستاذ زكى ، ويسمح لى زكى الامتاذ ، فإنا هذا اول
خطوة للتعارف لا للتصادم .



خاتمة

هذه دراسات أقدمها لمواطني ، ولا ريب أنها تستلزم رضا وتشجيعاً من فريق ، وانتقاداً من غيرها يستفيد منه الجميع ؛ وستكون من ناحية أخرى سبب حرب من السبب والتشويش يرسلها المفرضون شعواء ، والرجعيون هوجاء

ولقد قرأ البعض من إخواني - لجمود هؤلاء ، ولسوء نية الآخرين - ألف حساب ، فألحوا علىّ في أن لا أنشر الآن إلا القليل النزر مما كان بودي أن أجعله بين يدي كل قاري أنفتح فكره ، ونضجت معارفه ، حتى اضحى قادراً على متابعة الحركة الثقافية في الشرق والغرب ، وسما عن حضيض التقليد إلى مرتبة الاستبصار ، ينخل الحق من الباطل ، فيدافع عن الحق بقلب سليم ، ويغض الباطل بالتي هي أحسن .

اتبعت نصيح هؤلاء الأصدقاء ، وأول ما يتبادر للذهن أن في هذا اعترافاً بأنني خفت في الحق لومة اللائمين ، ورضخت

لحب الاطمئنان وآثرت العيش الهادي ، وأيم الحق ان ليس في هذا من حق ؛ فالجمود وعدم احترام افكار الغير ، وتهديم كل مشروع ليس مطبوعاً بالصبغة الفلانية او الفلانية . . . كل ذلك امراض في المجتمع المغربي ، فعوضاً من ان نصارع المرضى ، يجب ان نعاملهم باللين ، وان نحيطهم بعلاج مستمر سل تدريجي (فالداء بالقنطار ، والراحة على رأس الإبرة) كما يقول مثلنا العامي . فهذه رسالت مفتوحة لأوائك الاصدقاء الذين مهتمون الى حذف فصول وتعاليق كنت أطلعتهم عليها في تصميم هذا الكتاب قبل طبعه ، فليعلموا اني متأخرت عن ذلك خوفاً من اسخاط جماعة او حباً في إرضاء أخرى (١) .

☆☆☆

بهذه السلسلة أضع إن شاء الله لبتني فيما يضع إخواني لدعم ماهوى وإصلاح ما عوج من صرح المدينة المغربية ، وكل همي أن أراعي الوسط الذي اكتب له - كما فعلت في هذه الحلقة - حتى نصل الى الغاية المنشودة ، فاكتميت ، وسأكتفي ، بالترجمة (مع تعاليق او بلا تعاليق) حيناً ، واحبر فصولاً تكميلية أحياناً ،

«١» كما أني اضطررت قهراً الى حذف بعض الفصول تحت وطأة بعض الظروف

وأخصّ طوراً ، وألزم الصمت في كثير من الحالات لان وقت
التعليق عليها او التحدث عنها لم يات بعد .

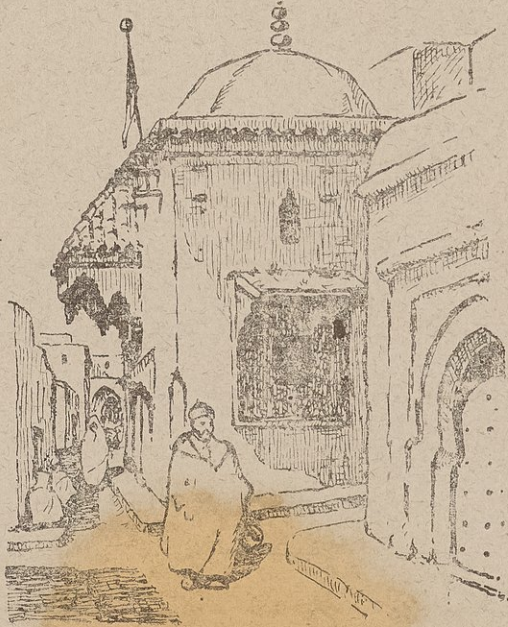
* *

ويجدر بي ، قبل ان اودع القاريء ، ان ارفع خالص شكرى
لاصدقاءى الغيورين الذين شجعوني ماديا على طبع الكتاب
حيث أقرضوني من مالهم ما انا معترف لهم به على الدوام .

*

* *

« ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة » ،
« ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن » .



الفهرس^(١)

الموضوع

الصفحة

٢ تمهيد

٧ ☆ ترجمة مقدمة الفصل الاول من (مفكرو الاسلام)

٩ ماخص مايتحتوي عليه مختلف الاجزاء .

١٠ الفلسفة السكولاستيكية .

*

* *

القسم الاول : علم الكلام .

١٥ ☆ الاسلام والبحث الفلسفي

١٧ ماهو أصل علم الكلام ؟ (رد على الرأي المتقدم)

١٩ - ٢١ الاسلام يحض على التجربة - (مقارنة بالفلسفة اليونانية) -

٢١ - ٢٤ آثار السياسة والدياسين والمتفلبين في الاسلام (ذبوع

الاسرائليات) - الجمود - احتكاك المسلمين بغيرهم -

(١) ☆ كل الفصول المسبوقه بهذه العلامة: ☆ فترجمتها .

٢٤ - ٢٧ موقف المسيحية وموقف الاسلام من الفلسفة - تأثير كل من المسيحية والاسلام في الآخر .

٢٨ - ٢٩ ☆ المتكلمون والمعتزلة : المعتزلة كفار ١ - ضياع كتبهم .

٢٩ - ٣١ تعليقاتان : بعض الكتب التي تتكلم عن الاعتزال - المسعودي .

٣٢ - ٣٥ إيضاح حقيقة : قيمة المعتزلة [على هامش الفصل المتقدم]

الاسلام لا يكفر المعتزلة - الاعتزال والراسيوناليزم

٣٥ - ٣٨ ☆ أمس مذهب المعتزلة : الاصول الخمسة .

٣٩ - ٤٠ ☆ آراء المعتزلة : هم أهل العدل والتوحيد - آراء مشتركة بين جميعهم

☆ مختلف مدارس المعتزلة .

٤٢ المدرسة الاولى : الواصليون .

٤٣ المدرسة الثانية : مدرسة أبي الهذيل .

٤٥ المدرسة الثالثة : النظاميون .

٥٠ ☆ الخلفاء والصراع المذهبي : عدم تسامحهم !

إظهار حق : تسامح الخلفاء :

٥٢ - ٥٣ التعصب غربي - الحركة الفكرية الاوروبية بالقرون الوسطى

٥٤ - ٥٧ عمل الخلفاء للرقى العام - تبرير بطشهم بالبعض من رعتهم

٥٨ - ٦٢ ☆ الامام الاشعري : حياته - مذهبه .

٦٢ - ٦٣ الابانة عن أصول الديانة - مقالات الاسلاميين - الخوض في الكلام

*

★ ★

القسم الثاني : العقائد .

٦٥ ★ عقائد النسفي .

٧٢ - ٧٦ تعاليق (على هامش العقائد) - عقيدة اهل السنة - الجيلاني

٧٤ - ٧٦ كريدو - كاتيشيسم

٧٦ - ٧٨ الذرات - تيمورلنك

٧٩ - ٨٨ ★ كتاب المواقف : المواقف الستة - قسم الاعراض

٩٠ - ٩٥ تعليقاتان : « على هامش كتاب المواقف » - المقولات - العرض

يقوم بالعرض

*

* *

القسم الثالث : الغزالي .

٩٨ ★ نظرية قصيرة في حياته .

١٠٢ ★ أسلوبه .

★ كتاب إحياء علوم الدين .

١٠٩ ☆ كتاب كيمياء السعادة .

١٢٢ - ١٢٨ مر كن الحافظة ومر كن المخيلة .

١٣١ الاستنتاجات من دراسة (كيمياء السعادة) .

١٣٣ الرسالة الدنيوية .

- ١٣٧ ☆ رأي الغزالي في علم الكلام
- ١٤٢ ☆ مؤلفاته ذات الصبغة الفلسفية القمحة .
- ١٤٣ على هامش هاته الكتب الفلسفية - المنقذ من الضلال .
- ١٥٤ المضمون به على غير أهله
- ١٥٨ كتاب مقاصد الفلاسفة .
- ١٥٩ أيها الولد !
- ١٦٠ الدرة الفاخرة - جواهر القراء
- ١٦١ منهاج العابدين .
- ١٦١ جان جاك روسو
- ١٦٤ - ١٧٢ ☆ كتاب تهافت الفلاسفة .
- ١٦٨ كانط .
- ١٧٣ - ١٨٨ على هامش تهافت الفلاسفة .
- ١٧٤ رأي ابن رشد في كتاب التهافت
- ١٨٦ تصريح لابن الطفيل في أبي حامد
- ١٩٠ ☆ الغزالي ومخاطرة باسكال .
- ١٩٢ تعاليق : باسكال .
- ١٩٤ - ١٩٥ سيلي بريدوم - تعاليق للمسيو كاراً
- ١٩٥ ١٩٦ المخاطرة عند البوصيري - بالقراءان - بالانجيل
- ١٩٧ الفرق بين مخاطرة المعري وباسكال والغزالي
- ١٩٩ اللانهاية - إيضاح جبري .
- ٢٠٣ تطبيق من القراءان .

☆ رأي الدكتور ساشو في أبي حامد	٢٠٦
٢٠٧ تعليق : غاليلي - كيبليز	
٢٠٨ نيوطن	
☆ ٢٠٩ - ٢١٢ دحض الرأي المتقدم	
الشك مبدأ اليقين	
٢١٣ ديكارت	
٢١٤ فلسفته (القوانين الاربعة)	
٢١٧ مذهب الشك عند الغزالي وديكارت	
٢١٨ نتيجة ارتياب ديكارت	
٢٢٠ نقد قاعدة ارتيايه - ديكارت والمعتزلة	
٢٢١ نقد موجه ضد الغزالي وديكارت	
٢٢٢ طريقة إثبات وجود الله عند ديكارت	
٢٢٣ المعتقدات الموروثة والغزالي وديكارت	
٢٢٥ ديكارت ينتقد الفلسفة	
٢٢٧ مقتطفات من كتاب الحيوان عن الشك واليقين	
٢٣٠ بضع ثوان مع الدكتور زكي مبارك	
٢٣١ موازنة الغزالي بديكارت	
٢٣٢ Intuition الانتويسبون ، (ملاحظة منطقية)	
٢٣٤ ملاحظة اغوية	
٢٣٩ اتهام الدكتور زكي الغزالي بالغفلة	
٢٤١ تصريح للدكتور حول ءالمة الاغريق	
٢٤٥ خاتمة	

مكتبة الأمانة

شارع المأمونية بالرباط

شيك بوسطو : 12.638

تافون . 48.39

أكبر مطبعة عربية فرنسية بالمغرب

طبع الكتب والجرائد والمجلات

والاشغال الادارية والتجارية

ومطبوعات المحاكم الشرعية

شعارها :

حسن المعاملة - وصدق المواعيد

الأثمان المناسبة

950A

LES PENSEURS DE L'ISLAM



Property of
Princeton University
Library



MOHAMED LAHBABI

IM. OMNIA KABAT

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 074436286